الكتاب الأحمر

رحلاتي في خريف العالم الشيوعي

يوسف القعيد

أدب رحلات

الكتاب الأحمر

رحلاتي في خريف الحلم السوفييتي

يوسف القعيد

مؤلفات

يوسف القعيد

١- الحداد: رواية. طبعة أولى. منشورات كتاب الطليعة ١٩٦٩، طبعة ثانية: روايات الهلال ١٩٨٣، طبعـة ثالثة: هيئة الكتاب ١٩٨٧.

٢- أخبار عزبة المنيسي: رواية، طبعة أولـى، هيئـة الكتاب ١٩٧١، طبعة ثانية: روايات الهلال، مارس ١٩٨٥، طبعة ثالثة: دار سعاد الصباح ١٩٩٢.

٣- أيام الجفاف: قصة طويلة، طبعة أولى مكتبة مدبولي القاهرة، دار العودة ـ بيروت ١٩٧٣.

٤- البيات الشتوي: رواية، طبعة أولى. روايات الهلال، ١٩٧٤. طبعة ثانية، مكتبة مدبولي ١٩٨٦.

٥- في الأسبوع سبعة أيام: قصة طويلة، طبعة أولـى، هيئة الكتاب، أكتوبر ١٩٧٥.

٦- طرح البحر: قصص قصيرة، طبعة أولى روايـات الهلال، ١٩٧٦. طبعة ثانية، هيئة الكتاب ١٩٩٠.

٧- يحدث في مصر الآن: رواية. طبعة أولى. (على نفقة المؤلف) ١٩٧٧. طبعة رابعة، دار المستقبل العربي ١٩٨٦. ترجمت إلى الروسية والعبرية.

٨- الحرب في بر مصر: رواية، طبعة أولى: دار ابن رشد، بيروت ١٩٧٨. طبعة خامسة، مكتبة مدبولي ١٩٩١. ترجمت إلى الروسية والأوكرانية والإنجليزية والفرنسية والهولندية والألمانية والعبرية.

٩- حكايات الزمن الجريح: قصص قصيرة، طبعة أولى، وزارة الإعلام والثقافة - العراق ١٩٨٠. طبعة ثانية، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٢. طبعة ثالثة، هيئة الكتاب ١٩٩١.

١٠- تجفيف الدموع: قصص قصيرة. طبعة أولى، هيئة الكتاب ١٩٨١. طبعة ثانية هيئة الكتاب ١٩٩١.

١١- شكاوى المصري الفصيح: ثلاثية. الجزء الأول: نوم الأغنياء، طبعة أولى، دار الموقف العربي ١٩٨١. طبعة ثانية: دار المسيرة - بيروت ١٩٨٢. طبعة ثالثة، دار الشروق ١٩٨٩.

١٢- الجزء الثاني: المزاد، طبعـة أولـى ١٩٨٣. دار المستقبل العربي. طبعة ثانية، دار الشروق ١٩٨٩.

١٣- الجزء الثالث: أرق الفقـراء، طبعـة أولـى دار المستقبل العربي ١٩٨٥. طبعة ثانية دار الشـروق ١٩٨٩.

١٤- قصص من بلاد الفقراء: قصص قصيرة، طبعـة أولى، روايات الهلال، ١٩٨٣. طبعة ثانيـة هيئـة الكتاب ١٩٩١.

١٥- من يذكر مصر الأخرى؟ قصص، طبعـة أولـى وزارة الثقافة سوريا ١٩٨٤.

١٦- من يخاف كامب ديفيد؟: قصة طويلة. اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق طبعة أولى ١٩٨٥. ترجمت إلـى الروسية.

١٧- الضحك لم يعد ممكنا: قصص قصـيرة، الطبعـة الأولى، مختارات فصول. هيئـة الكتـاب، ينـاير ١٩٨٧. الطبعة الثانية، هيئة الكتاب ١٩٩١.

١٨- القلوب البيضاء: رواية طبعة أولى، دار الشـروق ١٩٨٧. طبعة ثانية، دار الشئون الثقافيـة العامـة. بغداد ١٩٨٩.

١٩- بلد المحبوب: رواية طبعة أولـى، دار الشـروق عمان، الأردن، ١٩٨٧. طبعة ثانيـة.. دار سـعاد الصباح. القاهرة والكويت ١٩٩١.

٢٠- وجع البعاد: رواية، طبعة أولى، روايات الهـلال، ١٩٨٧.

٢١- أصوات الصمت، حوارات أدبية. طبعـة أولـى، مكتبة مدبولي ١٩٩١.

٢٢- مرافعة البلبل في القفص: قصة قصـيرة، طبعـة أولى، روايات الهلال، ١٩٩١.

من أوراق النيل: يوميات، طبعـة أولـى، دار سـعاد الصباح، القاهرة، والكويت ١٩٩٢.

فهرس

خيرها في غيرها

** لا أحب لهذا الكتاب أن يتحول إلى سـرادق مـن الورق، أتلقى فيه العزاء، في حلمنا جميعا، الذي تجسد على الأرض فعلا، في وطن الاشتراكية الأول، الذي تحول ـ بعد ذلك ـ إلى وطن الاشتراكية الأخير. لأننـي أفصـل بـين الاشتراكية كحلم بشري، وبين التطبيق الذي جرى لها هناك. ولأنني أومن بأنه ما دام على أرض ظلـم اجتمـاعي، وأن هناك شمالا مترفا وجنوبا جائعا. وما دام في داخـل حـدود الوطن الواحد من يموتون من الجوع ومـن يموتـون مـن التخمة. ما دام الحال هكذا، لا بد أن يبقى حلم الاشـتراكية، معلقا في ضمير البشرية وأحد أهداف العمل الإنساني.

حتى هذه الديمقراطية الشكلية، الديمقراطية المتمثلة في كل هذا الصبر الذي تلوث به صحف زماننا. والتي جـاءت في الأصل كشرط من شروط معونات القمح القادمة إلينا من الغرب. أقول إن هذه الديمقراطية ستبقى لا قيمة لها ما دامت لا تملك سوى تقديم حلول سحرية لحرية تـذكرة الانتخـاب وتنسى أو تتناسى حرية لقمـة الخبـز. عـلاوة علـى أن

ديمقراطية البطون الخاويـة، والأميـات: أبجديـة وثقافيـة وسياسية، تبقى دائما ديمقراطية القطيع.

ما علينا، أعود إلى موضوعي. وأكتب، أن بلاد الحلـم السوفييتي، كانت بالنسبة لي بلا دين. بلاد قرأت عنها، تحت مظلة الطموح الناصري الذي لامس سقف الكون. وفي زمن التراجع الساداتي الذي أعادنا إلى ما قبل المربع رقم واحد.

بدأت القراءة في حقول الأدب. كانت هذه البلاد بالنسبة لي. ذات حضارة عظيمة، فهي البلاد التي عاش فيها وكتـب عنها ولها: دستويفسكي أهم كاتب في تاريخ البشرية. كتـب عن أعماق النفس الإنسانية. وتولستوي الذي تعلمنا منه، كيف يكتب النص الروائي الذي لا يعرف أبدا، أين تنتهي الملحمة. وأين يبدأ النص الروائي، وتشيكوف، العبقري الذي حـاول نثر الحياة اليومية إلى قصائد من الشعر القصصي، والـذي جعل سأم وملل ورتابة الواقع اليومي خيالا قصصيا نـادرا. والذي جعلنا نحدق طويلا فـي البـؤس الإنسـاني، دون أن يتسلل إلينا اليأس أبدا.

بعد هذا الزخم الثقافي. كنت أحاول أن أرسم تضاريس الواقع اليومي من خلال متابعاتي وقراءاتي. كنت أتساءل هل

يمكن أن تحدث المعجزة في زمن قال للمعجزات وداعا؟ هل يمكن أن تتساوى الرءوس؟ أن يحصل كل إنسان على عائـد عمله بدرجة من التساوي الكامل.

إن العدل الاجتماعي بالنسبة لواحد مثلي، خرج من واقع اجتماعي فقير، يصبح قضية العمر المحوريـة. ولأن كـل التجارب كانت تنتهي إلى الفشل. كنت أقول لنفسي: إن مـا سيحدث لنا هو ما جرى لمن كانوا قبلنـا. نحلـم، وعنـدما نحاول الخروج من مناطق الأحـلام الضـبابية إلـى أرض الواقع، تحدث الكارثة.

كنت في الضفة الأخرى لليأس، كنت قد آمنت بأنه فـي أعماق كل تجربة إنسانية بذرة فشلها وفناؤها والقضاء عليها في النهاية، وأنه لا أمل على الإطلاق، بل لقد حدثت لي حالة من انعدام القدرة على الحلم. مع أن الدنيا بدون أحلام تصبح هي الجحيم على الأرض.

إلى أن جاءتني أول دعوة للسفر إلـى هنـاك " أرض الأحلام "، كانت المسـتعربة السـوفيتية الـدكتورة فاليريـا كيربتشنكو قد ترجمت ثلاث روايات لي هي: أخبار عزبـة المنيسي، يحدث في مصر الآن، والحرب في بـر مصـر.

ونشرت كل رواية بمفردها. وبعد أن نفدت طبعاتها الأولـى رأت دار النشر إصدار الروايات الثلاث في مجلد واحد.

وبمناسبة صدور هذا المجلد، قرروا دعوة المؤلـف ـ الذي هو أنا ـ لزيارة بلادهم. وقد كانت المرة الأولى التـي يترجم لي فيها حرف من اللغة العربية إلى لغة أخـرى مـن لغات العالم، عندما شـاهدت " أخبـار عزبـة المنيسـي " بالروسية. لم أفهم حرفا واحدا من المكتوب علـى الغـلاف، ولكن الرسم أكد لي أن ثمة صلة بيني وبين هذا الكتاب. بعد ذلك ترجمت أعمالي إلى لغات أخرى كثيرة. شرقية وغربية، ولكن تبقى الترجمة الروسية هي الترجمة البكـر. الترجمـة الأولى. الترجمة التي سبقت أية ترجمة أخرى.

كان ذلك في سنة ١٩٨٥. حيث كانت علاقات القـاهرة وموسكو تخرج من نفق السادات المظلـم، وكـان العـرض الأمريكي على أرض بلادي التي تحولت إلى مسرح له، في لحظة الذروة بالنسبة له. كانت العلاقات المصرية السـوفيتية تمر بمرحلة رمادية. لا هي في ازدهار مصر عبد الناصر. ولا في قطيعة مصر التي حكمها السادات.

كانت علاقات لا طعم لها. لدرجة أنني عندما وصـلت إلي الدعوة. بدأت إجراءات السفر اتصلت بمطـار القـاهرة الدولي، لكي أسأل: هل لا بد من تصريح ما عند السفر إلـى موسكو؟ ورد علي من سألته. بسؤال بدلا من أن يجيب علي: من أين أتيت بهذا الكلام؟!

في الطائرة. كنت أرتجف من شدة الانفعال، فأنـا فـي الطريق إلى بلاد، من المفترض فيها، أن فقر الفقير لا يعيره، والمهم بالنسبة لقيمة الإنسان هو عمله وكده. وبعد أن دخلت الطائرة الأجواء السوفيتية، قلت لنفسي: إننـي أحلـق فـوق بيوت يحلو لها في النهار أن تشم رائحة عرقها. وفي الليالي تستريح من التعب. تعب العمل. لكي تبدأ في اليـوم التـالي رحلة العمل من جديد.

الرحلة الأولى. تحولت إلى أربع رحلات. على مـدى ست سنوات وقد اكتشفت، مع الأسف الشديد، أنني قد سافرت إلى حلمي وهو في خريفه. حيث أوراق أشجاره قد بدأت في التساقط. وأيضا فإن علامات النهاية كانت قد بدأت تعبر عن نفسها.

لدي يقين تعلمته من الطبيعة في قريتـي أن لكـل أول آخر، ولكل بداية نهاية. وأنه حتى التجارب الكبرى في عمر الإنسان تمر بما يجري للإنسان في حياته من تبدل وتطـور. طفولة وصبا وشبابا وننضج، ثم يأتي الذبول الـذي يكـون مقدمة التلاشي.

نظام سرمدي لا يملك أحد دفعه ولا تغييره. ربما تطول رحلة على حساب الأخرى. ولكن لا مفر من حتميـة هـذا النظام الأبدي الصارم.

عندما عدت بعد أن انفض المولد وتهدم المعبد على من فيه. وجلست أعيد النظر في الأثر الـذي فعلتـه بـي هـذه الرحلات. وعندما جلست لكي أقرأ ما كتبته عن كل رحلـة في حينها. ذهلت. لأنه في هذه الرحلات الأربع. كتبت عـن تفاصيل صغيرة. تصلح كلها أن تصبح مدخلا لرواق النهاية التي جرت في أرض الواقع بعد هذا. فإن كنا نعـيش الآن: ساعة حلم موسكو الجميل الخامسة والعشرين. فقد عاصرت مقدمات النهاية. ورصدت بعيني بعض ما كان يجري هناك.

لا أحب أن أرتدي مسوح من يقـدرون علـى قـراءة الغيب. وأقول إنني تنبأت بهذا الأمر أو ذاك. رغم أن هـذه

التنبؤات المأساوية موجودة. ولكني فقط كنت أتابع ما يجري. والقادم دائما يخرج من رحم الحاصل.

قبل هذه الزيارات. كنت أحلم في بعض الأحيان، بـأن يتم بعض التلقيح بين النظامين، أن تأخـذ الاشـتراكية مـن التجربة الأخرى بعض الحريات السياسية على ألا يكون ذلك بديلا. أي مجرد استكمال. أي مع الإبقاء التام على المنجزات الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه يتجه الغرب الرأسمالي إلـى بعـض الإجراءات ذات الطابع الاجتماعي. أي دون أن يتخلى عـن خياره الديمقراطي، وكنت أتصور يوتوبيا عربية. تأخذ مـن موسكو الحل الاجتماعي ومن واشنطن الحـل الـديمقراطي. وتخرج منهما معا بنوع من الحل الذي لـن يحـدث علـى الأرض. وربما لن نجده حتى في الآخرة.

هذه الرحلات الأربع أكـدت أن ضـرورات التغييـر والتطوير داخل المعسكر الاشتراكي كان لا بد منها. ولا مفر من اللجوء إليها، ولكن المشكلة المأساوية جاءت عنـدما تـم هذا التطوير والتغيير بتقليد ما يجري في الغرب. صحيح أن النمط الرأسمالي كان يبدو في ذلك الوقت مزدهرا ومسـتقرا

ومتقدما. ومشاكله ـ إن وجدت ـ فهي قضايا داخلية. ولكن كل هذا لا يبرر ذبح التجربة الاشتراكية ومسخها حتى تصبح صورة مشوهة من تجربة الغرب.

كان ما يجري في موسـكو إذن ببسـاطة أن بـديهيات الماركسية اللينينية تتعرض لخطر حقيقي. والأمر لـم يكـن سوى تحول جوهري على النهج الاشتراكي. والتطوير الذي تم لم يكن من داخل التجربة ولكن على أساس الأخـذ مـن النقيض الآخر.

في رحلتي الأولى ـ سنة ١٩٨٥ ـ قالوا لي إنني جئت والبلاد تمر بأيام انتقالية. وإن هنا توجها نحـو الديمقراطيـة ولكن في إطار الحزب وأيديولوجيته. كـان جورباتشـوف، الرجل القادم من المجهول، يوعد بلاده في ذلك الوقت بأنهـا ستتجاوز الولايات المتحدة الأمريكية في الناحية الاقتصادية. وحتى يستند هذا الوهم الحلمي إلى حقائق الواقع. قالوا لـي في موسكو يومها: إن العجز في الميزانية الأمريكية هذا العام قدره ٢,١٣ مليار دولار.

كنت مسافرا مـن مصـر المثقلـة بجـراح الانفتـاح الاقتصادي. وعندما عبرت هناك عن خشـيتي مـن آثـار

الانفتاح السلبية ونحن أدرى بها من مصر. قالوا إن الانفتاح على الغرب ليس واردا بالنسبة لنا، لا الآن ولا مستقبلا.

هذا ما قالوه.

ولكن ما كان يجري على أرض الواقع كان أمرا آخـر تماما. كان الوطن السوفيتي يستدير على نفسه بزاويـة ١٨٠ درجة مرة واحدة.

في الزيارة الثانية. ومنذ اللحظة. كانت تهاجم حـواس الإنسان كل علامات التغيير. تغيير يتحدى حتى قدرة الإنسان على الاستيعاب. وسواء سمعت أو رأيت أو أحسست فإن كل ما يسري حولك يقول لك. إن الأمور تندفع في اتجاه غريب. وأنه لا توجد قوة على الأرض قادرة على وقـف الانـدفاع. وإن البلاد تركض نحو الكارثة.

وهكذا حجز السوفييت لأنفسهم السنوات الأولـى مـن قرننا العشرين، وكذلك السنوات الأخيـرة منـه. وإن كـان الفارق أنهم في الأولى كانوا يتقدمون إلى الأمام، ولكنهم في السنوات الأخيرة كانوا يتقهقرون إلى الخلف حتـى الحـائط الأخير الذي لم يعد له وجود. وذلك كمقدمة لنهايات القـرن وفاتحة لبدايات القرن القادم.

فهل كان ذلك كله مصادفة؟!

بقي أن أقول: إن كل ما كتبته عن التجربة. إنما هو من قبيل الكلام الذي يقال من داخل البيت. وليس من أرض مواجهة له، أيضا لا بد من إيضاح آخر. حول حكاية الصهيونية وإسرائيل واليهود السوفييت، وكذلك أوضاع الكتاب السوفييت في مواجهة هذه الدراما العنيفة. في هذا الكتاب نوع من الإلحاح غير العادي حول هذه القضية. يكاد يصل في بعض الأحيان إلى التكرار الذي أكرهه وأرفضه.

وعلى الرغم من أنني أعتقد أن الأمر ليس في حاجة إلى إيضاح، إلا أنني أقول وأحكي عن تجربة جيل عرف جيدا أصدقاءه وعرف أيضا، بنفس القدر، أعداءه، لقد جندت في صفوف القوات المسلحة المصرية من ديسمبر ١٩٦٥ وحتى نوفمبر ١٩٧٤ تسع سنوات كاملة عاصرت خلالها هزيمة يونيو ويقظة أكتوبر.

إحساسي بهذا العدو ليس نابعا من موقف نظري أو معاناة ذهنية. ولكن من خلال تجربة حياة مررت بها فعلا واستمرت تسع سنوات. تقع في أخصب مراحل العمر. ومهما تغيرت نظرة الآخرين إلى العدو الإسرائيلي. فستبقى

لي نظرتي الخاصة. وحتى إن كنت آخر المصريين والعرب بمن فيهم الفلسطينيون الذين يتعاملون مع العدو الصـهيوني على هذا الأساس. فسيكون أفضل لي ألف مرة أن أظل آخر الذين يرفضون التعامل مع العدو بدلا من الانضمام إلى قطيع الذين يمدون أيديهم بالسلام. لأن الطرف الآخر طالما أنه لا يزال عدوا. فاليد الممدودة تصبح مستسلمة، وقد أثبت العـدو الإسرائيلي في ظل سلامهم معه أنه أكثر عداء لهم من أزمنة حروبهم معه. وهذا ليس معناه أنني أعاني مـن الجمـود أو التحجر أو انعدام القدرة على التطور. ولكني أفرق دائما بين الثوابت والمتغيرات.

تبقى حكاية الأدباء السوفييت وتحولهم. وهذه المسـألة تشغلني فعلا منذ أن جرت عندنا ـ في مصر ـ ميليودراما التحول العنيف لأدبائنا في السنوات الفاصلة بين ثورة عبـد الناصر العظيم وارتداد السادات عنها. هذه من الأمور التـي تشغلني دائما.

لقد نشأت وتربيت وكتبت أولى كلماتي في ظـل واقـع يقول إن الأديب الحقيقي هو ضمير عصره. وهـو الأكثـر قدرة على التقاط جوهر الواقع. وقبل كل هذا وبعده تعلمـت

أن الأديب والكاتب والمفكر: موقـف، ولـذلك أنظـر إلـى التغييرات والتحولات التي تصيب الأدباء، باعتبارهـا أكثـر مأساوية وكارثية. عند التعبير عن التحولات التـي تصـيب الواقع فيما بعد.

منذ سنواتي الأولى، وأنا أتابع هذه التحولات بقدر هائل من الفزع. وأرى أنها تعبر عن عطـب يكمـن فـي روح الكاتب. وتشي بقصور في خياله. وتقول بصوت عـال. إن الانتهازية تقف على طرف سن قلم هذا الكاتب. وإنه يكتـب ما يكتبه على جلد الحرباء وليس على الورق الذي نتعامـل معه.

لا أحب أن يفهم من كلامي هـذا أننـي ضـد التغيـر الطبيعي النابع من داخل الإنسان والخارج من رحم اقتناعه، أنا فقط ضد استبدال الإيمانـات الأساسـية. مثـل اسـتبدال الأحذية.

آخر هذه الإيضاحات التي لا بد منها، أنني لم أجمع هذه الرسائل من موسكو في كتاب لكي تكون دليل يأس. بالعكس من هذا تماما. لقد جمعتها بين دفتي هذا الكتاب. لسبب آخر. وهو أنني أومن أن بعد غد ربما يكون أفضل من اليوم. لأن

ظلام الغد يجب ألا يجعلنا نصادر الـزمن الآتـي. لحكمـة بسيطة تقول إنه وراء الغد يوم آخر اسمه: بعد الغد. وهنـاك أيضا: بعد بعد الغد.

يوسف القعيد

مدينة نصر ـ الضهرية

بحيرة ـ ١٩٩٢.

المقدمات

لا بد من موسكو وإن طال السفر

* السادس من أكتوبر - من كل عام - عيد من نـوع خاص في موسكو. في هذا اليوم يبدأ نزول الثلج فيها، وهذه الأيام تأتي لياليها بيضاء، يذهب النهار ولكن يبقـى اللـون الأبيض في سماء ذلك الليل العجيب، أما ورق الشجر، فتخلي الخضرة مكانها للون غريب، لون ذهبي تماما.

وصلت إلى موسكو في اليوم الأول من أكتوبر، حيـث الخريف الذهبي، والليالي البيضاء، وانتظار الثلج النازل من السماء. والطائرة التي سافرت فيها من القاهرة إلى موسـكو مباشرة. كانت تقل في رحلتها من موسكو إلى القاهرة فرقـة روسية للفنون الشعبية. جاءت لكي تشـارك فـي مهرجـان الإسماعيلية للفنون الشعبية. ثم لكي تقـدم عروضـها فـي القاهرة والإسكندرية.

كنا ٢٤ راكبا على الطائرة، كان معنا الدكتور أنـاتولي أجارشيف العائد إلى بلاده بعد المشـاركة فـي الاحتفـالات بذكرى مرور خمسة عشر عاما على رحيل عبـد الناصـر. وأجارشيف الآن عضو اللجنة المركزية للحـزب الشـيوعي

السوفييتي وهو المسئول عن كل ما يخص الشرق الأوسـط. وله كتاب بالعربية عن عبد الناصر وقد عاش في مصر فترة طويلة كمراسل لجريدة البرافدا ويعرف العربية وقد حضـر إلى المطار بسيارة خاصة حملته إلى سلم الطائرة مباشـرة، التي انتظرته لبعض الوقت.

قال لي أجارشيف أنه سعيد للغاية بلقاءات ثلاثة عقـدها في يومه الأخير بمصر. وكان قد حضر إلى مصر بـدعوة من اللجنة المصرية للتضامن مع شعوب آسيا وأفريقيا. قـال لي إنه ذهب إلى منزل جمال عبد الناصر وقدم إلـى ابنـه الأكبر الدكتور مهندس خالد جمال عبد الناصر نسخة مهـداة من كتابه عن عبد الناصر. ثم التقى بعد ذلك بالدكتور يوسف والي الأمين العام للحزب الوطني الـديمقراطي ثـم التقـى بالدكتور حلمي الحديدي الأمين العام المساعد للحزب.

كان معنا في الطائرة الدكتور أحمد النشار الأستاذ فـي جامعة الأزهر الشريف وكان مسافرا بـدعوة مـن جامعـة موسكو لحضور مؤتمر علمي يعقد هناك. كانت معنا امـرأة مصرية محجبة تماما. مسافرة إلى زوجها مبعوث الحكومـة المصرية للدراسة العلمية في جامعة لينينجراد. كـان معنـا

أربعة طلاب مصريين مسافرين للدراسة في جامعات الاتحاد السوفييتي وفتاة مصرية مسافرة للعلاج هناك.

الزمن الثلاثي:

كان الوقت هو منتصف الليـل عنـدما وصـلت إلـى موسكو.

وكانت موسكو مثل امرأة مفكوكة الشـعر تنـز منهـا المياه، استحمت بمياه الأمطار، وفي لحظة فاصلة بين مـاء وماء، كانت موسكو تشرب مطرها، تتذوقه قطـرة، قطـرة وكل ما في المدينة كان يلمع ورائحة الماء تلتقـي برائحـة الليل.

كان في اسـتقبالي المستشـرق والمسـتعرب إيجـور يرماكوف مستشار اتحاد الكتاب السوفييت لشـئون الأدبـاء العرب وقد استغرقت المسافة من المطار وحتى الفندق وهـو يسألني بدلا من أن أسأل أنا. وكل تسـاؤلاته تـدور حـول مصائر أصدقائه في مصر خلال سنوات البعاد التي كانـت. وقد نزلت في فندق " أوكراييينا " وهو واحد من سبعة مبـان متشابهة تماما. بناها ستالين في زمن حكمه، بنـاه للأسـرى

الألمان، هو مبنى فيه عناصر العمارة الروسية القديمة القائمة على فكرة الأبراج التي تنتهي بنجمة، وأحـد المبـاني هـو جامعة موسكو والآخر فيه وزارة الخارجية والثالث الفنـدق والباقي عمارات سكنية. والأبراج السبعة ترمز إلـى تـلال موسكو السبعة.

وهذا الزمن في الاتحاد السوفييتي هو زمن التكنـوقراط والمتخصصين، سواء من داخل الحزب أو من خارجه، وهو أيضا زمن الاهتمام بالصناعة والزراعة والإنسـان العـادي أولا وأخيرا.

وعند الحديث عن زمن جورباتشوف يثور سؤال: ـ ـ هل تعود صيغة الترويكا؟!

والترويكا كلمة تعني الثلاثية. وهم يقصدون هل يعـود المثلث الذهبي لقيادة هذه البلاد، والثالثة هـم: جورباتشـوف السكرتير العام للحزب. وأندريه جورميكو رئـيس مجلـس السوفييت الأعلى، وريشـكوف رئـيس الـوزراء الجديـد، وعموما فإن هذا السؤال سيبقى معلقا على جبـين المسـتقبل القادم.

ولكنهم يتحدثون عن هذه المرحلة باعتبارهـا مرحلـة انتقالية. ويؤكدون أن المكتب السياسي للحزب بدون أقطـاب وبدون مراكز للقوى، وأن اللجنة المركزية فيها تمثيل عادل لكل التيارات.

المؤتمر القادم للحزب:

إن الحرس القديم يخلي مكانه بهدوء شديد لجيل جديـد، هذا ما يجري الآن في الاتحاد السوفييتي، وعلى الرغم مـن أن هذه البلاد قد قال عنها تشرشل من قبل إنها بلاد الأسرار والألغاز والسراديب التي لا يمكن الوصول إلى حقيقة الأمور فيها بسهولة. إلا أن الأمور تتغير، وإن كـان هـذا التغييـر يحدث ببطء، ومن السهل معرفة ما يجري في كواليس هـذه البلاد.

وعندما سافر جورباتشوف إلى باريس - خلال زيارته الأخيرة - وتم نقل وقائع زيارته الفرنسية بالقمر الصـناعي وقت حدوثها. فرك الروس أعيـنهم مـن الدهشـة وعـدم التصديق. وعندما سافر معه وفد صحفي ضم كل المراسلين الأجانب في موسكو من أجل تغطية الزيارة قال الروس:

ـ إن زمنا جديدا يطل على الاتحاد السوفييتي فعلا.

والآن، وعندما يقع حدث سياسي مهم، فإن رأي الحزب في الحدث وتعليقه عليه لا يصدر بعد أيام من وقوعـه كمـا كان يحدث من قبل، ولكن توجد متابعة هـي أقـرب إلـى الملاحقة السريعة منها إلى المتابعة البطيئة التي كانت تتم من قبل.

وفي فبراير من العام القادم ـ ١٩٨٦ ـ من المفروض أن ينعقد المؤتمر السـابع والعشـرون للحـزب الشـيوعي السوفييتي، وإن كان المحللون لا يتوقعون أن يـتم التغييـر بصورة جذرية في هذا المؤتمر، ويقولون أن التغيير الأحسم ربما تأجل إلى المؤتمر الثامن والعشرين للحزب والذي مـن المتوقع أن يعقد في فبراير سنة ١٩٩١ حيث تكون ملامـح زمن جورباتشوف قد اتضحت وتحددت بصورة أفضل.

أما في هذا المؤتمر القريب، فمن المتوقع إجراء بعـض التعديلات في لائحة الحزب وكذلك وجود انفراجة ديمقراطية ولكن في إطار الحزب وأيديولوجيته. وكـذلك حالـة مـن الاهتمام بالإنسان العادي وتحقيق مزيد من الانفتـاح علـى

الوطن العربي. والاتجاه شرقا ومحاولة اختـراق المعسـكر الغربي.

وعلى الرغم من أسوار الصمت الرهيب. فقد استطعت أن أعرف من مصادر مطلعة في موسكو. أنه قد تم الانتهاء من إعداد برنامج جديد للحزب الشيوعي السوفييتي. وإن هذا البرنامج مصمم لكي يقود البلاد حتى بداية القرن القادم. وإن هذا البرنامج الذي سيقدم إلى المؤتمر القادم هو أول محاولة لتغيير برنامج الحزب منذ البرنـامج الـذي قدمـه نيكيتـا خروشوف إلى مؤتمر الحزب سنة ١٩٦١. أي أنهـا المـرة الأولى لتقديم برنامج للحزب منذ ٢٤ عاما مضت، وأن هـذا البرنامج سيعبر بشكل دقيق عن أفكار جورباتشـوف، وهـو برنامج أهم صفة فيه هي الواقعيـة الشـديدة، وهـو يعـد المواطنين السوفييت، بأن بلادهم ستتجاوز الولايات المتحـدة الأمريكية في الناحية الاقتصادية قريبـا، ويركـز بصـورة أساسية على الإسكان، الغذاء، الملابس، السلع الاسـتهلاكية. وإن كان يعتمد بصورة أساسـية علـى مضـاعفة الطاقـة الإنتاجية للبلاد.

وعن مسألة تجاوز الاقتصاد الأمريكي يقولون همسا:

ـ إن العجز المالي في الميزانية الأمريكية هـذا العـام قدره: ٢,١٢ مليار دولار، وإن نسبة زيادة العجز فـي هـذا العام عن العام الماضي هي: ١٥ %.

الانفتاح والسمعة السيئة:

قال لي مستشرق سوفييتي:

ـ أحب أن تستخدم كلمة الانفتاح وأنت تتحـدث عـن الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الاتحاد السوفييتي.

سألته:

ـ هل لأنها توحي بأن ما قبلها كان انغلاقا.

قال لي:

ـ قبل هذا وبعده، إنها تعني الانفتاح على الغرب وهذا غير وارد حتى مجرد التفكير فيه، لا الآن ولا مستقبلا.

ومع هذا، فقد ذهبت إلى مسرح البولشوي في موسـكو، في مساء اليوم نفسه، وشهدت حالة من السـعادة، لأن هـذا اليوم نزلت فيه إلى الأسواق ـ للمرة الأولـى ـ زجاجـات مشروب البيبسي كولا، ومن قبلـه نزلـت إلـى الأسـواق الكوكاكولا، وفي البيوت الروسية الآن جهاز كاسيت صناعة

روسية وقد أعتبر الاتجاه إلى مثل هذه الصـناعات مسـألة مهمة وإن كانت قد جاءت متأخرة. ويتحدثون كثيـرا عـن إمكان تصنيع فيديو بعد عامين من الآن.

وهذا الاتجاه يحاول كبح جماح نوع من الغزل اليـومي للأدوات الاستهلاكية القادمة من الغرب، وهذا الغزل ـ الذي يأخذ شكل الشبق في بعض الأحيان ـ لا يأخذ شكل السباق، ولكنه يحاول تحقيق حلم الحياة السعيدة للمـواطن العـادي. خاصة بعد سيادة أيديولوجية لا تؤمن بوجود حياة أخرى ولا بعث ولا خلود. إذن لا بد أن يحصل الإنسان علـى حقوقـه كاملة في هذا العالم وليس في أي عالم آخر غيره.

وبريق الأشياء الاستهلاكية القادمة من الغرب ممثلا في أوربا.. والقادمة من الشرق ممثلا في اليابان، هـذا البريـق الروسي تجري له بعض التعديلات ولكنه موجود، من قبـل، كان هذا البريق يدور حول أشياء الاستعمالات الصغيرة. وقد تم تلبيتها من قبل بعض الصناعات الروسية. ولكنه يتحـول الآن إلى بعض الصناعات المعمرة الأخرى، إنه مثل الأفـق الذي لا حدود له، ولا مفر من أن يدخل هذا الأفـق ضـمن

الاهتمامات الجوهرية للصناعات السـوفيتية فـي المرحلـة القادمة.

إعلان الحرب على الفودكا:

حرب الخمر وحرب التدخين، حروب روسية داخلية من أجل الأجيال القادمة. بالنسبة للتدخين فإن نسبة عاليـة مـن الروس الذين تقابلهم لا يدخنون ويتم هذا لأسـباب صـحية أساسا، وأكثر الذين شاهدتهم يدخنون من سـائقي التاكسـي وعاملات الفنادق والعمال، والحرب ضد التدخين تـتم مـن خلال تقليل الأماكن التي يمكن أن يدخن فيها الإنسان. وهي الآن أصبحت محصورة في الشارع والمنزل ودورة الميـاه. ولذلك فإن محلات وأكشاك بيع السجائر لا يوجد عليهـا أي إقبال يذكر ولا يقترب منها أي طابور..

وبالنسبة للمدخنين فإن السيجارة القادمة من الغرب مـا زالت لها أولوية على السيجارة المحلية.

عن الخمر قال لي المستشرق إيجوريرماكوف:

ـ لقد قررنا القضاء على الخمر في خمس سنوات مـن الآن. وذلك من أجل صحة الأجيال القادمة، إن حربنا ضـد

الفودكا على طريق " الدب الروسـي " الشـهيرة. سنقضـي عليها تماما.

سألته:

ـ والعاملون في مثل هذه الصناعات ما مصيرهم؟

قال لي:

ـ ليست هذه مشكلة. يمكن تحـويلهم إلـى صـناعات أخرى نافعة.

لذلك توجد الآن تعليمات صارمة ومشددة بعدم تنـاول الخمور في أوقات العمل الرسمية، وعدم قيادة السيارات في حالة سكر والعقوبة هي سحب رخصة القيادة مدى الحيـاة، وفي المآدب والاحتفالات الرسمية لا يتم شرب الأنخاب على الطريقة الروسية والتي كانت جزءا ثابتا مـن تقاليـد هـذه المآدب. ومن حق المواطن الحصول على زجاجـة فودكـا واحدة في الأسبوع، وعليه أن ينتظر في طابور لمدة تزيـد على الساعتين من أجل الحصول على هذه الزجاجة الواحدة.

خط من؟

يتولى تنفيذ السياسة السوفيتية الجديدة وزيـر خارجيـة جديد هو إدوارد شيفرنادزة، أول رجل يـدخل إلـى مبنـى وزارة الخارجية الشهير، والذي يعد أحد معالم موسكو، بعـد أن بقي جروميكو في هذا المبنى من سنة ١٩٥٧ وحتى الآن. بدون انقطاع.

والخط السياسي السوفييتي الخارجي الراهن، يقوم على فكرة إكمال خط أندروبوف، رجل المخابرات الـذي حكـم الكرملين فترة قصيرة. وإن كان يتم الـتخلص مـن رجالـه واحدا بعد الآخر. حتى داخل المخابرات السوفيتية نفسها مما قد يؤدي إلى إضعافها في مواجهة أجهزة مخابرات الغـرب مستقبلا.

والرؤية السياسية السوفيتية تقوم على جوهر التقـارب مع الوطن العربي وفي المقدمة مصـر. واعتبـار الغـرب أيديولوجية معادية ومحاولة ضربه مـن الـداخل واختـراق صفوفه التي لم تعد متراصة واستغلال الفجوات التي قد تتسع بين بعض الدول الأوربية وأمريكـا، والعـداء للصـهيونية. والموقف السوفييتي الثابت ضد أي انقسام في منظمة التحرير

الفلسطينية. وإن كانت لهم تحفظات جوهرية علـى بعـض سياساتها في الفترة الأخيرة.

لكن الجديد في السياسة السوفيتية الخارجية هو الاتجـاه شرقا.

إن العقل السوفييتي يتجه الآن إلى الصين واليابان وهي خطوة جديدة تماما في تكوين الصورة السوفييتية. وربما من أجل تنفيذ هذه التغيرات كان لا بد من مجيء وزير خارجية جديد، إن هذه المنطقة لم تكن واردة أبـدا مـن قبـل فـي استراتيجية أندريه جروميكو.

وفي الوطن العربي أكدت تجربـة السـنوات العشـر الماضية، فشل سياسة البدائل مـن خـلال التركيـز علـى العلاقات بدول أخرى غير مصر، إن التجربة أوضـحت أن هذه السياسة لم تعد مجدية.

ضد الصهيونية:

اليهود السوفييت مشكلة حادة هناك؛ البعض يتحدث عن محاولة سوفيتية لتذويب اليهود السوفييت في الواقع الروسي، والموقف الرسمي من مسألتهم واضح ومحدد، ولكن القضية

عادت إلى مسـرح الأحـداث بقـوة قبـل لقـاء ريجـان وجورباتشوف. كنوع من استغلال المناسبة.

والأرقام تقول أنه قد غادر الاتحـاد السـوفييتي فـي الشهرين الأخيرين ١٢٠ يهوديا فقط. وهو رقـم ضـئيل إذا قورن بأي أرقام سابقة. وإن كان هناك توقع بأن يزداد الرقم بصورة غير عادية في الفترة القادمة حتـى لقـاء ريجـان وجورباتشوف كنوع من تحسين أجـواء اللقـاء. ويقـال أن إسرائيل قد استعدت لاستقبال ١٥ ألف يهودي فـي الفتـرة القصيرة جدا. وفي هذا الإطار هنـاك الآن حملـة ضـارية صهيونية في الغرب ضد الاتحاد السوفييتي.

ولكـن الموقـف السـوفييتي الواضـح. أن اليهـودي السوفييتي هو مواطن سوفييتي أصلا. ولد على هذه الأرض وله كل الحقوق وعليه كل واجبات المواطنة. ويسألون: هـل يطلب من اليهودي الفرنسي الهجرة؟ فلم يحـدث هـذا مـع اليهود السوفييت. إنه من الصعب دعوة مـواطن سـوفييتي لتغيير جنسيته. قال لي معلق سياسي.

ـ إن قالوا إسرائيل أفضل فلا بد من محاكمتهم بتهمـة الخيانة العظمى.

وهناك لجنة تكونت من اليهود أخيرا من أجل مكافحـة الصهيونية. ولكن الموقف السوفييتي صعب، إنه يتحدد بـين وضعين أحلاهما مر. الأول هو حالة الكراهية العامة لليهود. والثاني: الأضرار الناتجة عن السماح لهم بالهجرة من البلاد.

وحالة الكراهية لليهود ليست مطلقة وليسوا كلهـم مـع إسرائيل. وقد قابلت مستشرقين يهودا منهم ضـد إسـرائيل والصهيونية على طول الخط.

ريجان يظهر:

في موسكو حالة من التعبئة الكبيـرة لرجـل الشـارع السوفييتي انتظارا للقاء ريجان ـ جورباتشوف والذي تحـدد له يومي ١٩، ٢٠ من نوفمبر القادم زمانا وجنيـف مكانـا. وموسكو في انتظار زيارة جورج شولتز وزيـر الخارجيـة الأمريكية لها لبحث هذا اللقاء المهم. ومن المتوقع أن تكـون موضوعات هذا اللقاء أربعة. كما علمت بذلك في موسكو:

١- الاتفاق على الحد من تصدير الأسلحة التقليدية إلـى دول العالم.

٢- بحث حل المنازعات الإقليمية.

٣- حقوق الإنسان.

٤- العلاقات الثنائية.

والموقف الحقيقي في الاتحاد السوفييتي، إن هذا اللقـاء لن تكون فيه حلول لأية قضية ولن يتم حسـم أي موضـوع مطروح، وأقصى هدف لهم هو إيضـاح حقيقـة الموقـف السوفييتي للرأي العام الأمريكي والأوربي والعالمي. وهـذا اللقاء قد يقدم بعض الإجابات الأمريكيـة عـن التسـاؤلات السوفيتية: هل تريد الإدارة الأمريكية سلاما أم لا؟ القضـية ليست طرح تنازلات من أي من الطرفين بقـدر مـا هـي محاولة للاتفاق مع إدارة ريجان.

والسوفييت يرون أن إدارة ريجان تلعـب الآن اللعبـة القديمة نفسها، وهي التصعيد الشديد قبـل اللقـاء، وإجـراء ريجان لأكبر قدر من اللقاءات مع زعماء من العالم من أجل أن يبدو قبل اللقاء وكأنه يجمع أكبر قدر من الخيوط بيديـه. ولا مانع من عدة عمليات تليفزيونية واستعراضـية تسـبق اللقاء.

وقد سألت أكثر من مرة:

ـ هل كانت رحلة جورباتشوف إلـى بـاريس لجـس النبض أم أنها بروفة للقائه مع ريجان؟

يجيب البعض أن ذلك غير صحيح، وأن ما أقوله نـوع من التساؤل المشروع، ولكن رحلة جورباتشوف محاولة قـد تستمر في المستقبل، نحاول الاستفادة من الاستقلال الأوروبي عن أمريكا، وفرنسا من أهم رموز هذه النزعة.

نحن نتحدث طويلا ـ يقـول جورباتشـوف بـالحرف الواحد ـ في الفترة الأخيرة عن السلام لا عن ضـعف ولا عن تراجع ولا عن تخاذل، ولكن لأن لدينا سـلم أولويـات جديدة يقوم على بناء المساكن وتـوفير الطعـام والملابـس والحياة الجديدة للمواطن السوفييتي.

وفي سيرك موسكو الجديد في الفقرة الأخيـرة يتحـول فيها السيرك كله إلى كرة أرضية، والفقرة تحذر من أخطـار حرب الكواكب وتدعو إلى وقف التسليح النووي.

ماء النيل:

ـ من بدأ رحلته بمصر وصل إلى كل مكان في الوطن العربي كله.. ومن خرج من مصر، خـرج مـن المنطقـة جميعها.

هذا ما سمعته بالحرف الواحد أكثـر مـن مـرة مـن مسئولين سياسيين وأدباء وكتاب ومفكرين وجنود مجهـولين في مراكز صنع القرار الخاص بمصر في الاتحاد السوفييتي الآن.

وفي الاتحاد السوفييتي معملان يقدمان المـادة لصـانع القرار الخاص بمصر، الأول: إدارة في اللجنـة المركزيـة يتولاها الدكتور أتاتولي أجارشيف. والثـاني: هـو معهـد الاستشراق القومي. وقد جاء بريماكوف مدير المعهـد إلـى مصر وقابله الرئيس حسني مبارك، أجارشيف عـاش فـي مصر فترة من الوقت وفيه روح مصرية صميمة.

لكن السوفييت لهم الكثير من الملاحظات، هنـاك مـن يقول إن مصر لا تريد العودة إلى العلاقات معهم. وهـم لا

يتحدثون عن علاقات متميزة أو خاصة ولكن علاقات عادية، فالعلاقات الحالية أقل من العادية من وجهة نظرهم.

يقولون: إن هناك عقبات أساسية في الأمر. في مقدمتها موضوع الديون القديمة الذي فشل الطرفان في الوصول إلى أية صيغة له.

هناك أيضا طلب سوفييتي بزيادة عـدد الدبلوماسـيين السوفييت في السفارة السوفييتية في القاهرة، ويمكن لمصـر أن تفعل هذا أيضا في سفارتها بموسكو، سمعت أيضـا مـا يقال عن جزء من عمارة في الجيزة تطل على النيـل كـان يسكنها بعض الدبلوماسيين السوفييت، وقد تم الاستيلاء عليها في زمن السادات ثم طلبوا إعادتها، ولكن الحكومة المصرية طلبت اللجوء إلى القضاء من أجل استعادتها.

يتحدثون أيضا عن أن الحكومة المصـرية، لا تعطـي المصدرين والمستوردين المصريين مـن القطـاع الخـاص التسهيلات المطلوبة من أجل التعامل مع الاتحاد السـوفييتي، ولا حتى التشجيع العادي.

تياران عن مصر:

في موسكو تياران بخصوص مصر، تيار يرى تطـوير العلاقات معها، وتيار يرى عكس هذا. وهذا التيـار الثـاني يرى أنه حتى لو حدث تقارب من جانب مصر الآن. وفـي ظل الموقف الراهن، فقد يكون هدفه الأساسي مجرد الضغط على أمريكا.

ولكن التيار الآخر يتحدث عن زيارة الـرئيس مبـارك للسفارة السوفيتية لتقديم العزاء في وفاة تشيرنينكو ويقولـون إنها سابقة لم تحدث من قبل.

ولكنهم يقولون: إن ما تم حتى الآن كان خطوة أولـى.. وفي عالم اليوم الذي يجري بسرعة لا أحد يهـتم بـالخطوة الثانية مع أنها قد تكون أكثر أهمية وحسـما مـن الخطـوة الأولى.

والآتي:

في مكتب سفير مصر لدى الاتحاد السوفييتي: صـلاح بسيوني صورة كبيرة الحجم للسد العالي. وكأن الرجل يريـد أن يقول، لكل من يدخل على مكتبه من خلال هذه الصورة،

إنه لا يبدأ من فراغ في عمله، وإنه عندما ذهب إلى موسكو لأول مرة، كانت هناك أسس متينة للعلاقات بين البلدين لا بد من البدء بنفض التراب عنها، وإن كان السد العالي أبرز هذه الرموز فهو ليس الرمز الوحيد في مصر فيها، ومـن هـذه الرموز: تسليح الجيش المصري ـ الحديد والصلب ـ مجمع الألومنيوم ـ القطاع العام المصري.

وفي هذه الأيام تمر سنة على وصول سفير مصري إلى موسكو ومجيء سفير سوفييتي إلى القاهرة. بعد فتـرة مـن عدم وجود سفراء بين الدولتين وإن كانت العلاقات قد ظلـت قائمة.

ومن الصعب التوقف أمام هـذه السـنة التـي مـرت بحسابات الربح والخسارة. وطرح سؤال ماذا تحقق خلالهـا وما لم يتم تحقيقه بعد؟ ومن المتوقـع أن يحضـر السـفير المصري: صلاح بسيوني إلى القاهرة في شهر ديسمبر القادم ومن المؤكد أن حضوره سيتحول إلى تقويم دقيق للعلاقـات بين البلدين. وحتى يتم هذا التقويم فإن الناس فـي الاتحـاد السوفييتي يسألون بلهفة عن البرتقال واليوسفي المصـريين ويقولون إن هذه الأشياء الجميلة لا يمكن أن تأتي سوى مـن مصر.

بل إن هناك حالة من الاهتمام بالمانجو المصـرية، دفـع بعض علماء الزراعة هناك إلى الحديث عن خطر يهددها، وهو قادم من دولة تجاور مصر من الناحية الشرقية يقولون إنها تضع في المياه المصرية بعض المحاليل التي قد تقضي عليها. وهـذه الدولة هي إسرائيل التي تغتصب فلسطين وتحتلها.

والاتحاد السوفييتي سوق مفتوحة أمام العطـور وأدوات الزينة والتجميل والأحذية وكل الصناعات القطنية. وقابلـت في لينينجراد فوجا سياحيا مصريا يقول إن السياحة في هـذه البلاد أفضل وأرخص من أي بلاد أخرى. وما مـن مدينـة ذهبت إليها في الاتحاد السوفييتي حتى وجدت طلبة ومبعوثين مصريين يدرسون في معاهدها وكلياتها.

وقد قال لي محلل سياسي:

ـ إن دورات التاريخ البطيئة قد أقنعت الروس بأهميـة تطبيع العلاقات مع مصر. وإن قرارا بهذا المعنى قد صـدر على أعلى المستويات السياسية، وأن هذا القرار قد نزل إلى القواعد. ولكن تبقى الخشية من التنفيـذ. إن بعـض الآثـار الجانبية هنا أو هناك ربما كانت ضارة.

يوم خاص
في بيت دستويفسكي

ركبت قطار موسكو لينينجراد السريع، فـي العاشـرة مساء وبعد ليلة روسية في القطار وصلت إلـى لينينجـراد صباحا. كان القطار يخترق الليل الروسي القديم، تحت سماء بيضاء مضاءة متألقة، خالية من النجوم. كان القطار يخترق الليل، مثل عيني أديب واقعي وقح. كان معي فـي القطـار نفسه الطاهر وطار، الروائي الجزائري الكبير والـذي يعـد الآن في طليعة الروائيين العرب، وسميح القاسـم صـوت الغضب الشعري القادم من السجن الكبير الذي نسميه خطـأ: فلسطين المحتلة، والشاعر العراقي الكبير: سـعدي يوسـف والذي تتحول أبيات الشعر على لسانه إلى بكائيات عربية لا أول لها ولا آخر. كان معـي مـن الـروس. المسـتعرب السوفييتي: إيجور يرماكوف ذلك الإنسان المسـكون بحلـم مصري لا ينتهي، والدكتورة أولجا دومينكينا الحاصلة علـى الدكتوراه في الأدب العربي، وأولجا فلاسوفا المترجمة مـن العربية إلى الروسية، وأوليج ذلك الشاب الروسي من أبنـاء

لينينجراد والذي شارك في عملية الترجمة عند تدريب رجال الجيش المصري على صواريخ " سام " قبل حرب السـادس من أكتوبر العظيمة.

سألت الدكتورة أوليجا:

ـ لماذا لا يحتـل القطـار مكانـا مهمـا فـي الأدب السوفييتي؟

كان السؤال مباغتا، فكرت قليلا، ولكني أكملت:

ـ باستثناء رواية أناكارنينا الذي يلعـب القطـار دورا رئيسيا فيها، لا يوجد القطار في الأدب الروائي السوفييتي مع أنه يلعب دورا مهما ورئيسيا في حياة الشعب السوفييتي.

قالت لي أوليجا:

ـ موضوع جديد ومهم جدير بالمناقشة وإن كنـا لـم نلتفت إليه من قبل.

المتحف المسكون بالبشر:

لينينجراد اسم جديد وحديث لمدينة قديمة ومعمرة كـان اسمها قبل ثورة أكتوبر " بطرسبورج "، وكانت هي عاصمة

روسيا القديمة. وبعد الثورة أطلق عليها اسم لينين، وجـراد تعني مدينة. ونقلت العاصمة على موسكو.

ولينينجراد ليست مدينة بالمعنى الحرفي، إنهـا متحـف قديم، ينتمي إلى الأزمنة البعيدة، يسكن هـذا المتحـف الآن أبناء القرن العشرين، متحف استطاع الخروج مـن معطـف العصور الوسطى وأن يبقى في قرننا العشرين.

والمدن مثل النساء، تراها أولا بصورة مجملة، ثم تبـدأ في رحلة النبش بحثا عن التفاصيل الدقيقة، تمنحك أسـرارها واحدا بعد الآخر، تجعلك تشرب رضـابها قطـرة قطـرة، ولينينجراد منحتني نفسها في الثامنة صباحا، حيـث المطـر والضباب وأوراق الخريف الذهبية اللون.

أدباء بطرسبورج:

أحد ملامح المدن هي التماثيل التـي تـزين ميادينهـا، مررت بتمثال في ميدان عام، وعندما دققـت النظـر فيـه، اكتشفت أنه بوشكين ولكن لينينجراد، التي كانت بطرسبورج قبل الثورة هي مدينة دستويفسكي.

عندما سألت عنه اكتشفت أنه لا يوجد له تمثال واحد في المدينة، سألت من جديد. تحدثت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو، المستعربة المعروفة وأهم من تـرجم الأدب العربـي علـى الروسية اليوم. والتي تعد جسرا للتفاهم الحقيقي بين الأدبـين العربي والروسي. وقبل أن تتحدث سألتها من جديد:

ـ هل هناك موقف سوفييتي من دستويفسكي؟!

قالت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو:

ـ دعنا لا نتحدث عما مضى ـ ليس هذا وقته الآن ـ ولكن في أيامنا توجد عملية إعادة اعتبار لدستويفسكي، نحن الآن نعتبر أن لـدينا ثلاثـة مـن الكلاسـيكيين الخالـدين: تولستوي، بوشكين، ودستويفسكي.

سألتها:

ـ كيف يترجم ذلك إلى واقع؟ لم أقرأ عملا واحدا لـه مترجما إلى العربية منشورا عندكم.

قالت، ردا على سؤالي، وقد تحول ردها إلى خبر جديد:

ـ هذا العام والعام القادم، تنشـر دار التقـدم أعمـال دستويفسكي الكاملة في ثمانية عشر مجلدا، هي عبارة عـن ترجمة الدكتور سامي الدروبي، وهذا يحدث للمرة الأولى.

مرة أخرى، وقف السؤال في منتصف المسـافة بينـي وبينها:

ـ هل كان هناك موقف منه؟ وكيف؟

قالت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو:

ـ دستويفسكي لعب دورا سلبيا بأدبه بالنسبة للشـباب، كان ذلك من الأمور الصعبة، ولكن الأمر انتهى الآن.

أما الدكتورة أولجا دومينكينا، فقد توقفت أمام الكلمـات قبل أن تنطق بها:

ـ دستويفسكي حفار قلوب، كان يحفر كثيرا في القلـب الإنساني، لكي يعثر على الصديد والدماء التي فيه، وليس من أجل رؤية النور القادم من القلب الإنساني.

أكملت بعد قليل:

ـ هذا رأيي الشخصي من قراءاتي له.

أما الطفلة إيرنادوميميكنا، ابنة الـدكتورة أولجـا، فقـد قالت:

ـ لا أحب قصصه.

كانت أولجا تتذوق النطق العربي بكلماتها، وكان المعنى الذي يستدير في ذهني يقول:

ـ ظلم الكتاب لغة عالمية، ليست في حاجة إلـى مـن يترجمها من لغة على أخرى، فكم أحببت هذا الكاتب العظيم، خاصة أن عبقريته الحقيقة تكمن في علاقته الفريدة بـالنفس الإنسانية من الداخل. وقد حدث هذا قبل كل اكتشافات علـم النفس وغيرها.

في بيت دستويفسكي:

حمدت الله أن في لينينجراد متحفا لدستويفسكي ومتحفًـا لبوشكين وهما من أبناء المدينة أصلا، وقررت أن أخصص يوما من الأسبوع الذي قضيته في لينينجراد لزيارة متحـف وبيت دستويفسكي.

والمتحف ليس خاصا به، ولكن بعصره، ففـي الطـابق الأول صور لمدينة لينينجراد في زمنه، وفي مكـان خـاص رسائل دستويفسكي بخط يده، ورسائله إلى أبيه وأشقائه وإلى أبناء عصره، خط جميل منمـق، لا توجـد كلمـة واحـدة مشطوبة في الرسالة كلها، وإن كان الشطب يزداد ويتكـاثر

في مخطوطات أعماله الروائية. الكتب المدرسية التي كـان يدرس فيها وعليها العبارات التي كتبها بخط يده في الهوامش في لحظات المذاكرة. الكتب التي قرأها دستويفسكي في شبابه بصوت عال على أفراد أسرته: شكسبير، جـروج صـائد، بلزاك، ورقـة امتحـان دستويفسـكي، صـور لكاتدرائيـة بطرسبورج.

في هذه الفترة الباكرة اهتم دستويفسكي ببوشكين، وهذا دولاب كامل فيـه أعمـال بوشـكين. وصـورة لصـديق دستويفسكي نيكراسوف. الشاعر الروسي الكبير.

وفي هذه الأثناء تعرف أيضا على إيفان تورجنيف.

مخطوطات أعماله، يوميات كاتب، مذكرات من العـالم السفلي، بيت الأموات. والأخوة كرامازوف.

الحكم بالإعدام:

فترة السجن. ثم الحكم عليه بالإعـدام. نـص تقـارير الشرطة السياسية السرية عنه وعن تحركاته السرية بـنفس خط الشرطي الذي كتبها بها على نفس الأوراق الرسمية.

يكتب دستويفسكي رسالة نادرة إلـى أخيـه ميخائيـل، يصف فيها لحظة تنفيذ حكم الإعدام فيه. وهي اللحظة التـي خرج منها أدبه كله بعد ذلك، يقول فيها:

ـ " أخي، كل شيء قد تقرر سلفا، لقد أتـوا بنـا إلـى ساحة بطرسبورج وأعطوني صليبا لكي أقبله ثـم كسـروا السيوف فوق رءوسنا وألبسونا القمصـان البيضـاء وجـاء السواري لكي ينفذوا الحكم. لقد نفذوا الحكم ـ حكم الإعـدام ـ في ثلاثة، وكنت أنا أول الدفعة الثانية، لم تبق سوى دقيقة واحدة من الحياة.وقد فكرت فيك أنت يا أخي العزيز. دقيقـة واحدة هي التي بقيت لي في هذا العالم، لكي أقبل أصدقائي، ولكن الطبول بدأت تدق، وهذا معناه الإعلان عن إبطال تنفيذ حكم الإعدام ".

ومرحلة السجن لها مكان خاص في المتحـف، فهنـاك نص التقارير الأمنية المكتوبة عنه خـلال فتـرة السـجن، وخريطة السجن الذي قضى فيه العقوبة والأوراق التي دخل بها السجن والتي خرج منه بها.

يكتب لأخيه متأملا حياته:

ـ لست حزينا يا أخي ولا ضعيفا ومعنويـاتي قويـة. الحياة هي الحياة في أي مكان. في السجن أو في الشـارع. لأن الحياة فينا نحن وليست خارجنا، وفي السجون سـيكون حولي باستمرار أناس آخرون. إن الحياة تقتضي أن أكـون واحدا من البشر. وأن يكون لي في كل لحظة أشقاء وبذلك لا نفقد قوتنا ولا معنوياتنا. لقد فهمت هذه الحقيقة جيدا الآن. أن الفكرة اقتحمت لحمي ودمي.

هنا كان يسكن:

باب البيت الذي كان يسكنه دستويفسكي عادي. والبيت من طابقين. سكن هو في الطابق الثاني منـه. وراء البـاب مباشرة مشجب للمعاطف ومكان للمظلات ومـرآة طويلـة وقنديلان قديمان وشماعة ملابس عليها القبعـة التـي كـان يرتديها ثم غرفة أطفاله. ابن وابنة فقط، الابن فيدور يحمـل نفس اسم والده، والابنة لويا، وفي الغرفة نفس اللعب التـي كانا يلعبان بها وكتب الأطفال التي كان يقـرأ لهمـا منهـا بصوت عال. والكتب هي: مؤلفات بوشـكين. ولجوجـول: تارسا بولبا. وقصائد ليرمونتـوف ورسـالة موجهـة مـن دستويفسكي إلى ناشره يطلب إليه بعض المال علـى وجـه

السرعة، ورسالة أخرى يطلب فيها إلى ناشـره أن يرسـل نسخة من رواية " ديفيد كوبرفيلد " لـديكنز علـى حسـابه الخاص. وصورة لدستويفسكي مهداة بخط يده إلى أنيا الطيبة العزيزة من نفسي. كانت أنيا هي زوجته وهي التي تسـاعده في عمله، وهي التي كانت تعد النسخة الأخيرة من رواياتـه قبل النشر. وقد قال لها تولستوي:

ـ كثير من الكتاب الروس كانوا سيشعرون أنهم أفضل لو تزوجوا من امرأة مثلك.

مكتب دستويفسكي:

كان دستويفسكي يحب الشاي كثيرا، كان يشرب منه في غرفة السفرة كوبين، ثم يحمل الثالث إلى غرفة المكتب. وفي حجرة السفرة على الحائط صورة للمسيح وحوراييه ثم صور ليهوذا. وكان دستويفسكي يكتب في الليل فقط وبعد أن ينـام أفراد أسرته، زوجته وابنه وابنته.

وفي المتحف نص رسالة تولستوي عنه بعـد وفاتـه، الرسالة بخط يد تولستوي:

ـ بعد موته أدركت أنه كان أقرب وأعز إنسـان إلـى نفسي، وإن كنت لم أره أبدا رأي العين، كنت أتمنى رؤيتـه والتحدث إليه في المستقبل، ولكن هذا لم يحدث لسبب بسيط: إنه مات. إن مؤلفات دستويفسكي وذكاءه الحاد يثيـران فـي داخلي حالة من الغيرة.

ربما لا يحب أحد في الاتحاد السوفييتي الحـديث عـن الروح، وربما تصوروا أنها أساطير شرقية، ولكنـي خـلال التجوال في بيته المتواضع الصغير والمكون من أربع غرف، كنت أشعر بأنه موجود معنا، ينظر غلينا من مكان عال يحلل ما نقوله ويريد في بعض الأحيان ـ أن يوضح لنـا بعـض الأمور.

في اليوم التالي، أحضر لي مصري يدرس في الجامعة السوفيتية، خريطة لمدينة لينينجراد بسطها أمامي وقال:

ـ هنا نهر النيفا حيث رمى راسـكولنيكوف السـاطور الذي قتل به العجوز، وهنا في مدخل هذا المعبد جلس إيفـان كرامازوف لكي يناقش أخاه في مسألة الدين. أما عـن هـذه الغابات فقد أتى الأمير مشيكين، الأبله الروسي الشهير الذي قدمه دستويفسكي باعتباره مسيحا جديدا.

ذهبت بعد ذلك إلى الأماكن نفسها، وقفت فيها صـامتا، أدركت في ذلك الصمت الشتوي البارد، أن الإبداع هو نـوع من الكفاح ضد الفناء. وأن كل كلمة صادقة تشـتري سـنة أخرى من الخلود للكاتب.

ما أكثر الكتاب في كل الأزمنة والأمكنة، ولكن ما أقـل الذين يضعون أيديهم على الجوهر. وهذا الجوهر الحقيقي هو الطريق ـ ربما الوحيد ـ إلى الخلود.

الأدب السوفييتي اليوم:

سافرت إلى الاتحاد السوفييتي، وفي ذهني من الأدبـاء السوفييت المعاصرين لنا الآن أربعة من الكتاب، قرأت لهـم وأعجبت بهم وكنت أتمنى لقياهم، أولهم: جنكيـز إيتمـاتوف صوت آسيا السمراء، الصافي والواضح الكاتب الأقرب إلينا نحن أبناء الحرف العربي، والثاني: رسول حمزاتوف الـذي يخيل إليك أنه كتب أعماله بالعربية أولا ثـم ترجمـت إلـى الروسية وأعيدت ترجمتها إلى العربية مرة أخرى. كتاباتـه مناجم عامرة بذلك الحب وتلك الحكـم. والثالـث: يفجينـي إيفتشينكو، ذلك الشاعر الكبير وصاحب الصـوت الشـعري

العالي، والرابع فاسيلي إكسيونوف صاحب الرواية الرائعـة: الزملاء، هناك اكتشفت أن الخريطة الأدبيـة فـي الاتحـاد السوفييتي تبدو مختلفة عن تصوراتنا هنا في الوطن العربي. فاسيلي إكسيونوف لا أحد يتحدث عنه هناك. فقد انشـق دون أن ندري نحن هنا، وكلمة انشق تعبير استخدمته أنا ولكـنهم هناك قالوا لي في صمت:

ـ أكسيونوف؟! لقد هرب إلى الغرب وهنـاك يعـيش الآن.

تذكرت على الفور، أن انشـقاقه حسـب تعبيـري، أو هروبه وفراره حسب تعبيرهم لم يكن مفاجئـا، كانـت لـه مقدماته في روايته الزملاء.

وقبل وصولي إلى الاتحاد السوفييتي بعامين كـان قـد مات آخر العباقرة الكبار من جيل الكلاسـيكيين الأول، إنـه ميخائيل شولخوف صاحب الرواية العظيمة: " هادئا ينسـاب الدون ". ويجري الآن تحويل بيته إلى متحـف فـي قريتـه البعيدة عن موسكو.

وقد قابلت أفتشنكو مصادفة في مطعم اتحـاد الكتـاب السوفييت. وقرأت له خلال وجودي هنـاك قصـيدة رائعـة

عنوانها: هل يريد الروس حرب؟ وقد سألت عنه بعـد هـذا اللقاء الذي صنعته الصدفة وتمنيت لو أنني قابلته. فقيل لـي إنه لو حضر مؤتمر اتحاد الكتاب السـوفييت فسـألقاه فـي المؤتمر. ولكني لم أجده في المؤتمر وعندما سألت عنه قيـل لي إنه سافر خارج البلاد.

أما رسول حمزاتوف، صاحب " داغستان بلادي " فقـد قيل لي إنه مسافر إلى خارج البلاد، وقد كنت حريصا علـى لقاء جينكيز أتيماتوف، ليس لأنه أشهر الكتـاب السـوفييت خارج الاتحاد السوفييتي وداخله أيضا، وليس لأنه قريب منا نحن أبناء الوطن العربي، ولكن لسبب آخر، ففـي رواياتـه مساحة من الحرية لا تجدها لدى كاتب آخر.

عندما سألت عنه، قيل لي إنه ربما يحضـر المـؤتمر وهناك يمكنك أن تقابله، ولكنه لم يحضر إلى المؤتمر، قيـل لي إنه ينتقل من قيرغيزيا ـ حيث الجمهورية التـي يعـيش فيها ويكتب عنها ـ إلى موسكو، ولامهم أنني عدت دون أن أقابله.

تسعة آلاف كاتب:

الآن، يوجد في خريطة الإبداع الأدبـي فـي الاتحـاد السوفييتي أدباء جدد لم نسمع عنهم هنا في الوطن العربي.

قال لي إيجـور يرمـاكوف، المستشـرق المعـروف ومستشار اتحاد الكتاب السوفييت للأدب العرب:

ـ في بلادنا تسعة آلاف كاتب أعضاء في اتحاد الكتاب السوفييت، وهناك أعداد كثيرة تنتظر القبول ولكـن الاتحـاد يدقق كثيرا في قبول الأعضاء.

من الكتاب الذين لهم جماهيرية واسعة القاص: فاسـيلي شوكشين، وهو ممثل وكاتب، توفي منذ عشر سنوات ويدرس الآن الاتحاد السوفييتي تحويل بيته إلى متحف وله جماهيرية واسعة بين القراء، وله مجلد قصصي يضم أفضل ما كتـب عنوانه:

" العناقيد الحمراء "

وهناك أيضا فالنتين راسبوتين وهو قصاص معاصـر، يكتب كثيرا في الصحف والمجلات. والشباب السوفييتي يقبل على قراءته بصورة غير عادية وهنـاك الشـاعر الكبيـر

دودين، والكاتب جورجي ماركوف صاحب روايـة: الآبـاء والأبناء، وهو رئيس اتحاد الكتاب السوفييت، وهناك الشاعر إيسايف صـاحب القصـيدة الرائعـة: السـاعة الخامسـة والعشرون، والقصيدة كلها عبارة عن رسالة من شهيد روسي من شهداء الحرب العالمية الثانية يصحو ويعبـر الأطلنطـي ويذهب إلى البيت الأبيض لكي يقول لرئيس الأمريكي: لـو قامت الحرب القادمة ستكون الساعة الخامسـة والعشـرين للبشرية كلها.

والشعب السوفييت قارئ بصورة نهمة. ما إن يعلن عن بيع بعض الكتب الجديدة، حتى يتحول الناس إلـى طـوابير طويلة للشراء، والكتب رخيصة بدون حد وأي كتـاب ينفـد خلال أسبوع رغم أن الكميات المطبوعة هناك من أي كتاب لا تقل عن ١٥٠ ألف نسخة، وهنـاك كتـب يصـل عـدد المطبوع منها إلى الملايين من الكتب. والنـاس تقـرأ فـي الحدائق وفي المترو وحتى على السلم الكهربـائي، وطالـب المرحلة المتوسطة ـ التي تقابل الإعدادية عندنا ـ لا بد أن يقرأ كل ما كتبه الكلاسيكيون الروس جيدا ويمتحن فيه.

فاوست ودون كيشوت:

شاهدت في لينينجراد أوبرا فاوست، وذهبت في موسكو إلى مسرح البولشوي، وكلمة بولشوي تعني بالروسية الفخـم أو الكبير. وهناك شاهدت باليه: دون كيشوت، مـن خـلال رؤية عصرية. وقد حصلت على تذاكر العـرض بصـورة استثنائية وبعد تدخل من اتحاد الكتاب ومن صديقة المصريين في موسكو الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو، فـالمواطن ينتظـر نصف سنة حتى يحصل على تذكرة.

دموع موسكو:

وقضية الحرية من القضايا الحاضرة الغائبة في الوعي الجماعي للكتاب السوفييت، وعندما تسأل عن مساحة عبـاءة الحرية يقولون لك على الفور إن كلمة الحرية مـن أدبيـات الأيديولوجية الغربية، وإننا نتحدث عنها كثيرا فـي الـوطن العربي، لأن إعلامنا كله قادم من الغرب، وردا على السؤال عن الديمقراطية وقضاياها يقولون لك إن الديمقراطية علـى الطريقة الليبرالية القادمة من الغرب ليسـت مطروحـة وإن

كان من المتوقع أن تحدث حالة من الديمقراطية بعد المؤتمر القادم للحزب الشيوعي السوفييتي.

وقد قالت لي باحثة سوفيتية بالحرف الواحد:

ـ الحرية الفردية تأكل نفسها كالنـار تمامـا، ونحـن نتحدث عنها من خلال لغة أخرى ومفردات مغايرة، فالأغلبية دائما على حق.

وفي هذا الإطار تبدو العملية الإبداعية مغامرة صـعبة، فما أكثر الرقباء الذين يقفون حتى في قلب الكاتب، ولذلك فإن الكاتب الذي يتمكن من الإبداع ونشر عمله ويلاقي قبولا من الجماهير ويحقق حالة من الانتشار الجماهيري يصبح شـيئا كبيرا جدا، ويعامل هناك باعتباره نبيا ولكن علـى الطريقـة السوفيتية.

تحدثت طويلا عن أفق الحرية وعن عباءة الديمقراطية وعن المدى الذي يمكن أن يصل إليه الانتقاد في عمل أدبـي وعن المعارضة الأدبية، ولكن يبدو لي أن اللغة في بعـض الأحيان تبدو مجهدة ومتعبة وعاجزة عن إحـداث التواصـل المطلوب، ليس بسبب الترجمة ولكن لسبب آخر تمامـا. أن

المفردات التي استخدمتها في طرحي للقضايا تبدو غريبة عن المفردات التي يستخدمونها هم.

قال لي أكثر من كاتب، لـدينا حريـة، انطلاقـا مـن تجربتنا، ولكننا نطلب المزيد من الحرية في المرحلة القادمة.

الموت ظلما واغترابا

أزهري في روسيا

.. حتى أنا ظلمته دون أن أدري، وقفت في طابور من ظلموه، وهو أطول طابور لظلم إنسان، يمتد في الزمان مـن القرن الماضي، ويصل حتى زماننا، ويتربع في المكان، من روسيا إلى مصـر المحروسـة، مـرورا بالإمبراطوريـة العثمانية.

والحكاية أنني قضيت أسبوعا فـي مدينـة لينينجـراد بالاتحاد السوفيتي، كانت الزيارة الأولى، حيث العودة إلـى بحار الدهشة القديمة. ومحاولة تذوق المرئيات.

بعد العودة، وجدت السؤال في انتظاري:

ـ هل زرت قبر الشيخ الطنطاوي؟! وقـرأت الفاتحـة على روحه؟

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهـري المـدفون فـي أصقاع بلاد الشمال الباردة، من الصعب القول أننا قد نسيناه، لأن أجيالا كثيرة خرجت إلى الحياة لا تعرف من هو الشـيخ الطنطاوي.

اسمه بالكامل: محمد بـن سـعيد بـن سـليمان عيـاد المرحومي الطنطاوي الشافعي، ولد في قرية نجريـد، مـن قرى الغربية سنة ١٢٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى و ١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح.

كان والده من قرية محلة مرحوم، وفي ذلـك الزمـان البعيد، كانت محلة مرحوم لها وزن أكثر من طنطـا للـولي المعروف السيد أحمد البدوي فتغير الحال، أحيات عاصـمة إلى المعاش، وخرجت إلى الوجود عاصمة أخرى، والمـدن كالناس، تولد وتكبر ثم تأتي إليها الشيخوخة وأخيرا المـوت، وكان والده يعمل في التجارة، وكان له شـقيق واحـد هـو مصطفى، وقد عمل بالتجارة أيضا.

جاء محمد عياد الطنطاوي إلى عالمنـا، بعـد حكايـة نابليون بونابرت الذي حضر إلى مصـر، ومعـه المـدفع والمطبعة، ثم عاد ومن بعده جنده، معهم المدفع ولكنهم تركوا المطبعة في بر مصر، وانبثق التاريخ عن المغامر الجسور، تاجر الدخان الألباني الذي قرر أن يستنبت طموحه الـذي لا حدود له، وأحلامه التي لا تعرف المنتهى فـي تربـة وادي

النيل العظيم، جاء ببذور أمانيه من أوربا، ولذلك كـان مـن الطبيعي أن يرسل النوابغ والنابهين إلى أوروبا.

كانت تلك هي الكلمة الأولى في مصير الطنطاوي، وإن كان قد رحل صوب الإمبراطورية الروسية بدلا من فرنسا، التحق الطنطاوي بالكتاب في سن السادسة، وكانـت شـهرة طنطا في تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين، وقد قيل: ما قرآن إلا أحمدي، وما علوم إلا أزهرية.

في سنة ١٢٣٨ هـ ـ ١٨٢٣ م، رحـل محمـد إلـى القاهرة، دخل الأزهر الشريف، وكان رفاقه في الدراسة هم: رفاعة رافع الطهطاوي، الذي أصبح صديقا له، على الـرغم من أن الطهطاوي كان يكبره بعشر سنوات، وبعد ذلك أصبح الطهطاوي علم المرحلة ونجمها الكبير، في حـين انـزوى الطنطاوي في زوايا النسيان حتى كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " فاق في شهرته كتاب طنطـاوي: " وصـف روسيا " الذي ما زال مخطوطا حتى الآن بل إن من كتبـوا بعد ذلك عن الكتابين يقولون: إن طنطـاوي كتـب وصـف روسيا وهو تحت أثير كتاب الطهطاوي.

كان من رفاقه الشيخ محمد قطة العدوى محقق كتـاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية من " ألف ليلـة وليلة " التي طبعتها مطبعة بولاق الأميرية، وهي النسـخة التي عاشت عليها كل الأجيال حتـى لحظـة كتابـة هـذه السطور.

وكان من أساتذة طنطاوي: حسن العطـار، وإبـراهيم الباجوري، ومحمد الترميذي صاحب القاموس الشهير: تـاج العروس، اتجه طنطاوي إلى دراسة علوم اللغة فـي زمـان كان كل أبنائه يتجهون إلى الفقه أولا، والفقه أخيرا، وكأنـه بذلك قد بدأ الخطوة الأولى في السباحة ضد تيـار العصـر، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضرا في ميدان علوم اللغة، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر منه دراسة في اللغة.

توفي والد طنطاوي بعد وصوله إلى القـاهرة بخمـس سنوات، فكان عليه أن يـدير شـئون حياتـه إلـى جانـب الاستمرار في دراسته، في سن العشرين قام بالتدريس فـي الأزهر رغم أنها سن مبكرة، وكان يعطي دروسا في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب. وفي السابعة والعشـرين من عمره جاء إلى مصر وباء، وما أكثر الأوبئة فـي هـذا

الزمان، وكاد يفتك به، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلـن في القاهرة، ولكنه نجا من موت محقق.

قضى في الأزهر عشر سنوات مدرسا، وانقطـع عـن التدريس في بعض الأحيان بسبب مرضه، وسيصبح المرض بعد ذلك رفيق رحلته وأنيس غربته، وسيقعده عن العمل في الوقت الذي يصل فيه إلى ذروة المعرفة والانتشار، والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة، مرتب الأزهر كان ضئيلا، وكان لا بد من عمل لكي يعيش، وهكذا عمل طنطاوي فـي وظيفـة ثانية.

يبدو أن العمل الثاني الذي يمسك برقاب المثقفـين فـي مصر عمره أطول مما نتصور، ربما كان مـؤامرة قديمـة لأكل المواهب، وتبديد الوقت وتعكير صفاء الـذهن ونسـف القدرة على الإبداع.

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة، وهكذا وجـد طنطاوي عمله الثاني وهو التحرير والتصحيح لما ينشر من علوم أوروبا لكنها القوانين، الأقوى والأكثر خلودا في مصر، التي اخترعت الأبدية، قوانين الأزهر منعته من العمل الثاني، فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر، وقد كان.

عمل في تدريس اللغة العربية وآدابها للفرنجة، كان أول عالم لغوي، في أول مدرسة في زمانه، وكان هذا التـدريس هو الذي غير مجرى حياته كلها. كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان، ومن بينهم ـ وهذا هو المهم ـ اثنان مـن روسيا، التي لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السـوفيتي بعـد، هما: موخين وفرين، الأول هو: نيقولا موخين الـذي كـان مترجما في القنصلية العامة الروسية في مصر سنة ١٨٣٥، ثم نقل إلى اسطمبول بعد عامين، مترجما رابعا في السـفارة الروسية هناك. التي كانت أهم سفارات روسيا فـي الشـرق كله، حيث الإمبراطورية المترامية الأطراف التي لا تحـدها حدود.

تشاء أقدار الطنطاوي أن يكون نيقولا موخين هو مرافق رحلته إلى بطرسبرج بعد ذلك، والثاني هو رودلـف فـرين كانت تلك هي الخيوط التي نسجت مصير الرجل ورسـمت شكل حياته.

في سنة ١٩٤٠ وجهت الدعوة بإذن من قيصر روسيا، وموافقة محمد علي باشا إلى الشيخ الطنطاوي ليسـافر إلـى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية ليقوم بتعليم اللغـة العربيـة

وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسـية في بطرسبرح، وكانت هي عاصـمة روسـيا القيصـرية، وأصبح اسمها بعد ذلك لينينجراد، وقد نقلت العاصمة فيمـا بعد إلى موسكو، وذلك أن دوام الحال من المحال.

وحسب تقاليد ذلك الزمان، اسـتعد الشـيخ الطنطـاوي للسفر إلى روسيا وربما يحتاج إليه سفره، وكانت أهم بنـود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية، وأرسلها لكي تحصل العلوم في باريس، كنوع من الإعداد لها للحياة الجديدة، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيدا في غربته وكانت هذه الزوجة تدعى "أم حسن ".

غادر الطنطاوي القاهرة، يوم السبت الرابع والعشـرين من المحرم سنة ١٢٥٦، الموافق السادس عشر من مـارس سنة ١٨٤٠. ركب صندلا في النيل، كـان يسـير ويتوقـف حسب حالة الجو، مر بشبرا التي كانت مشهورة ببسـاتينها، ولم يمر على طنطا، لأن طريق بحر النيل لم يكن يحضنها، كان بعيدا عنها، ولكنه شم رائحتها عنـدما استنشـق هـواء الغربية، لم يتوقف فعفريت السفر كان قـد ركبـه وانتهـى الأمر، ولم يعد قادرا على أن يحط على الأرض.

وصل إلى الإسكندرية يوم الثاني والعشرين من مارس، وكان لكل مدينة باب يقفل إذا جاء الليل، يحميها من قطـاع الطرق ورجال المنسر، ولا يفتح الباب إلا صـباحا، وصـل الطنطاوي إلى الإسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فاضطر إلى المبيت خارجها.

في الإسكندرية، المدينة التي يأتيها البحـر، وتضـاجعه كلما أكل قلبها الاشتياق للفعل، قضى طنطاوي عدة أيام عند قنصل روسيا العام، ركب بعدها باخرة في البحـر المـالح، لأول مرة في حياته، ذلك البحر الذي بلا شاطئ آخر.

وفي السادس والعشرين من مـارس، أصـيب بـدوار البحر، كان السفر عن طريق جزيرة كريت، حيث تـزودت السفينة بالفحم الحجري اللازم للوقود، وصلت أزميـر فـي الثالث من أبريل، قطعت الباخرة بحر مرمرة ووصلت إلـى اسطمبول وأمضى الطنطاوي أياما في الحجر الصحي، وقابل السفير الروسي الذي كلف الترجمان موخين، تلميـذ الشـيخ سابقا، بمرافقته في رحلته إلى روسيا.

غادرا اسطمبول في الثالث والعشرين من أبريل، ركبـا باخرة روسية، وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا إلـى

أودسا، أنفق الشيخ الطنطاوي هذه الساعات في دراسة اللغـة الروسية، كان الوصول إلى أودسا في الخامس والعشرين من أبريل، وقضى وقته الذي مكثه في الحجر الصحي في تعلـم الروسية أيضا.

شاهد في أودسا الأوبرا الإيطالية، حيـث رأى روايـة السلطان محمد في المرة الأولى، وفي الثانية رواية العاشقين، ولم يكن في المسرح من يلبس العمامة سواه، غادرا أودسـا يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من مايو، اخترقا روسيا مـن جنوبها حتى شمالها، بعربات البريد التـي تجرهـا الخيـول وتمشي ببطء شديد، رأى الطنطاوي بلادا سـهولها شاسـعة وأنهارها عريضة، وخضرتها كثيفة وتخلو تماما من غبـار الشرق الأوسط وحرارته وقيظه.

في الخامس والعشرين من مايو، وصـل إلـى مدينـة كييف، ونزل في فندق لندن، وتركها بعد يومين من الراحة، ووصل إلى قرية موهلوف في الثلاثين من مايو، وأقام فيهـا ثلاثة وعشرين يوما، لأن موخين، رفيق الرحلة، ومترجمها، كان له أقارب في القرية وطالت زيارته لهم.

فرك الطنطاوي عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة في حياته، وسلك أذنيه الشرقيتين علـى صـوت العزف على البيانو في بيوت الأهـالي، وحضـر حفـلات الرقص، وزار الحمامات التي كانت تتفوق عليها حمامـات القاهرة وإسطمبول كثيرا.

في يوم السبت الثاني والعشـرين مـن يونيـو غـادر الطنطاوي موهلوف، وشاهد حريق مدينة الإسكندرية، وهي مدينة صغيرة بناها الإسكندر ذو القرنين، ورأى السكة الحديد الجديدة في روسيا. وفي يوم السبت التاسع والعشـرين مـن يونيو سنة ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج، بعد سفر دام ثلاثـة أشهر ونصف الشهر، قضى منهـا شـهرين فـي الحجـر الصحي، وقرية موهلوف، وصل في زمن كانت الرومانسية الغربية، قد خلقت حالة غريبة من الاهتمام بالشـرق، لـذلك كان من الطبيعي أن يجتذب الشيخ الأزهري المعمم أنظـار روسيا كلها.

عاش الرجل في روسيا، ولكن الحنين أكله إلى مصـر، فعاد إليها سنة ١٨٤٤، ثم رجع إلى روسيا حيث بقـي بهـا حتى توفاه الله. وفي الثامن من أكتوبر سـنة ١٨٤٧، وبعـد

سبع سنوات على حضوره إلى روسـيا عـين أسـتاذا فـي الجامعة، وكان ميدان عمله قد اتسع، فشمل الجامعـة أيضـا علاوة على وزارة الخارجية الروسية، وفي تدريسـه كـان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية.

كان يدرس قواعد اللغة العربية، ويشرح أمثـال لقمـان ويقرأ قطعا تاريخية من مقامات الحريري، وكـان يـدرس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط العربية، وقراءة المخطوطات والمحادثة باللغة العربية، وابتـداء مـن سـنة ١٨٥٥، بدأ يدرس تاريخ العرب.

وفي الخامس عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠، اسـتحق الشيخ الطنطاوي الشكر القيصري على جهوده في التـدريس لطلاب بطرسبرج، وبعد عامين حاز ميدالية من أحد ملـوك أوروبا شكرا له على قصيدة باللغة العربية، ثم أهـداه ولـي عهد القيصر خاتما مرصعا بالجواهر شكرا علـى جهـوده، وفي هذه الأثناء كتب عنه الروس الكثير، قالوا في كتاباتهم، " إن طيبة قلبه وطبعه تشـبه صـفات الأطفـال وإن ذكـاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد ".

كان الشيخ الأزهري المعمم، يجلس على أريكة في بيته، يشرب الشاي، وللشاي طقوس جميلة في حياة الـروس، ثـم يتحدث عن مصر المحبوبة، ورواتها ومغنياتها وراقصـاتها، وغيرها من المسرات التي كانت تملأ حياته بمصر، ولـيس لها أي وجود في حياة روسيا، قالوا عنه: " إنسان تغلب على التعصب ". كتبوا " مرح وعطوف "، أكدوا، " لـيس لمثـل طنطاوي آخر في هذا العالم كله ".

قام الطنطاوي بالتدريس خمس عشرة سـنة منتظمـة، ووصلت شهرته أوجها، وفي سـنة ١٨٥٥ افتتحـت كليـة اللغات الشرقية، وكان افتتاحها حدثا مهما بالنسبة له، ولكـن يبدو أن لحظات تحقيق الأماني، هي نفسها، لحظات فقدانها، ففي أيام المجد، خانته صحته، والعلة التي تصيب الجسد في الغربة تصبح مأساة، وهكذا أصبحت حياته نوعا مـن الهـم المتصل. وفي هذا العام نشر آخر مقالة له بالفرنسية، وقـال آخر قصيدة شعرية في رثاء القيصر نيقولا الأول.

والذي حدث، أنه في سبتمبر من عام ١٩٥٥، أصـيب بشلل في قدميه، والأوراق التي تركها الرجل بخط يده عـن هذه الفترة، تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوب بها.

في أبريل ١٨٥٦، طلب من الأطباء أن يمدوا له أجازته المرضية ثمانية وعشرين يوما، ليسافر إلى بوهيمـا، وذلـك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة، ولا يدري الإنسان لماذا لم يطلب العودة إلى مصر، ويدفن الجزء المصـاب منـه فـي رمالها الساخنة؟ ما علينا.

في مارس من العام التالي، طلب السفر إلـى الخـارج للعلاج، والخط المكتوب به الطلب، وتوقيعـه عليـه، يشـي بمدى تدهور حالته الصحية، وفي السابع من فبرايـر سـنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل.

ثم قدمت الجماعة طلبا لتقدير معاش تقاعدي للطنطاوي، بمناسبة مرور عشرين عاما على خدمته في روسيا، بسـبب مرضه، واستدعي من أجل توقيع الكشف الطبي عليه، فأجاب إنه لا يمكنه المجيء بسبب المرض، ويبدو أن الكشف الطبي قد جرى في بيته، واستعفي من الخدمة في ٣١ ينـاير سـنة ١٨٦١ أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلـغ ١٤٢٩ روبلا، ولم يطل زمان انتفاعه به، فقـد تـوفى فـي التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٦١، وكما يـذكر فـي شهادة لإمام مسجد بطرسبرج، أنه مات من مرض الأكلة.

وهكذا مضى الرجل، ولكن ماذا عن أسرته التي كونها في الغربة؟ في التاسع عشر من مايو ١٨٥٠، ولدت زوجـة الطنطاوي ولدا أسموه " أحمد "، ولأن زوجته " أم حسـن " توفيت قبله، توسل الطنطاوي في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا ابنه في داخلية إحدى المدارس الوسطى على حسـاب الدولة الروسية، بسبب مرضه ووفاة زوجته.

وبعد وفاة الطنطاوي، توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ذوي الأمر أن يبقى معاشه لابنه، وصار الوصي الرسـمي على أحمد " الأستاذ كسوفتش، الذي عرض سنة ١٨٧٠ باسم أحمد على جامعة بطرسبرج شراء مجموعـة مخطوطـات الطنطاوي، وقد اشترتها المكتبة سنة ١٨٧١.

وهكذا استوطن الطنطاوي روسيا، وقد قدم في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢، طلبا باعتباره تابعا عثمانيـا، إلـى إدارة الجامعة، لكي تعطيه سجل خدمة أبيـه، ليقدمـه إلـى الإدارة الروحانية المسيحية في بطرسبرج لأداء القسم، حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية، وقد توفي أحمد فـي أواخر القرن التاسع عشر، ودفن في جبانة المسلمين، حيـث سبق دفن أمه وأبيه، وجبانة المسلمين كانت موجودة في قرية

فولكلوف القريبة من بطرسبرج، ولكن الزمان محا تماما آثار قبر أم حسن وأحمد، ولم يبق سوى قبر الشـيخ الطنطـاوي فقط.

وفي الثالث والعشرين، من أبريل سـنة ١٨٨٦، قـدم الوصي سولفيوف طلبا إلى إدارة الجامعة، لكي يعطوه وثيقة عن الطنطاوي الابن، ليقدمها لمجلس الإشـراف، لإدخـال حفيدة الطنطاوي " هيلانة " في طبقة الأشراف، حتى يمكـن تربيتها في دار أيتام الأشراف.

وهكذا تكتشف أن حفيدة الطنطاوي قد أصبحت مسيحية، ونكتشف ضياع آثار أسرة من بلاد الأهـرام الدافئـة، فـي أصقاع روسيا الباردة.

مات الطنطاوي ظلما واغترابا، والظلم لم يحدث له بعد رحيله، كما يحدث عادة، ولكنه كان ضيفا ثقيلا غير مرغوب فيه في حياته نفسها. في سنة ١٩٤٠، كتبت سـافيليف: " أن اسم الطنطاوي معلوم لدى كل من يدرس العربية، مع أنه لم يؤلف شـيئا " وكتـب غويفوريـف: " أن تـدريس الشـيخ الطنطاوي، لم يترك أي أثر في روسيا، والـدور الأساسـي الذي لعبه كان في الاستشراق الفنلندي ".

أما الدكتور أغناطيوس كراتشوفسكي، مؤسس الاستشراق في روسيا كلها، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوي ومأساته معا، في كتابه الجميل الذي ألفه عنه (*)، وتأليف هذا الكتاب حدث مهم لمن يعرف قدر الرجل، في روسيا والعالم، يقول كراتشوفسكي:

" كان الطنطاوي معاصرا لأغلبية رجال النهضة الأوربية البارزين في القرن التاسع عشر، لكنه سار على خط غير الذي سار عليه معاصروه المشهورون، لقد بقي في عزلة عن الحركة العامة، ولم يشترك فيها، أو يؤثر في تطويرها، كان الطنطاوي ربيب الأزهر، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة في ذلك الحين، ولكن الطنطاوي كان بعيدا عن دائرة صحفيي ذلك العهد الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول

(*) والكتاب عنوانه: " حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي ". تأليف: أغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمه إلى العربية: كلثوم عودة وراجع النص العربي وحققه وعلق عليه. عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغني حسن، ونشره: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤، ولولا هذا الكتاب الفريد والمهم ما كان ممكنا كتابة هذا المقال عن الشيخ الطنطاوي.

الجريدة العربية الأولى، وقد انضم الطهطـاوي إلـيهم، ولا ندري كيف يمكن أن تكيف حياة الطنطاوي، لو لم يرحل إلى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة ".

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد ينسـى لدرجة أن العلمـاء المصـريين، المنـدوبين فـي مـؤتمر المستشرقين، المنعقد في ستوكهولم سنة ١٨٨٩، مـا كـانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم. التي وقعت قبـل ذلـك بثمانيـة وعشرين عاما كاملة.

كل هذا جرى، على الرغم من أن الطنطاوي ترك حين وفاته واحدا وأربعين مؤلفا، معظمها، مخطوط لم ينشر حتى الآن، لعل أهمها كتابه الفريد: " وصف روسـيا " وعنوانـه الكامل: " تحفة الأذكياء، بأخبار بلاد روسيا، وقد أهداه إلـى السلطان عبد المجيد ".

ورغم مرور كل هذه السنوات على رحيله، إلا أن أحدا من بني وطنه، من مصر، لم يتحرك، لتحقيق كتبه ونشرها، ودراسة رحلته الفريدة والدور الذي قام به، وما أكثر الرسائل الجامعية التي تلوك ما قيل من قبل وتكرره. وتعيد وتزيـد، مهملة منجم ذهب حقيقي يتمثل في آثار هذا الرجـل، الـذي

طارده الظلم والغربة، حيا وميتا، ولاحق الظلم نتاجه الأدبي والفكري، وحتى أسرته لاقت نفس المصير.

قام الطنطاوي برحلته، في نفس الوقت الذي قـام فيـه الطهطاوي برحلته إلى باريس، ولكن الأول بقي في روسيا، في حين عاد الطهطاوي، والأول طواه النسـيان والنكـران والثاني أصبح علما على عصر بأكمله.

اغترب الطنطاوي عن الوطن والديار، في زمن لم يكن المصري قد تذوق فيه طعم الاغتراب، ولا كواه الحنين إلـى بر مصر.

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصر، في ذلك الوقت البعيد، والغربة أسلمته إلى ظلم بين، وحتـى الآن لا أعرف من أين جاءت البداية، الغربة التي أوصلته إلى ظلم، أو الظلم الذي رمي به إلى الغربة، أم أن كل عصر يكون فيه رجل واحد، يذبح كل أبناء جيله من أجل أن يمتد ظله إلـى العصر كله..؟!

التحول

مخاطر
تهدد بروسترويكا جورباتشوف

وصلت إلى موسكو في السادسة صباحا، كان العالم كله دائرة واسعة من اللون الأبيض. في الجو ضـباب جميـل، والأرض والأشجار والأشياء والمباني مغطاة بالثلج، وهـذا حال يثير الإحساس بالشجن.

في قصص الكتاب السوفييت وصف يتكرر دائما يقول، إنه ما إن ينزل ثلج الشتاء حتى يتسلل الإحساس بالكآبة إلـى النفوس، وما إن يبدأ ذوبان الثلوج، حتى تأتي مقدمات الفرح الإنساني.

وبالنسبة لي، كقادم من بلاد حارة، تسبح فـي الصـهد والسخونة والغبار، فإن هذا الجو يبدو قريبا من الأحلام. من الصعب أن تعرف في موسكو الآن، أين ينتهي الشـتاء ولا أين يبدأ الربيع، الشتاء يولي وإن كانـت علاماتـه تفـرض نفسها، تتشبث بالبقاء، ومقدمات الربيع موجودة هنا وهنـاك وهذه الأيام نفسها عنوان لرواية جميلة، مـن عيـوب الأدب السوفييتي هي " ذوبان الثلوج " لإيليا إهرنبرج.

موسكو لثالث مرة، و " التالتة تابتة " كما يقولون، وهي تابتة لأن بلاد السوفييت " وطن الاشتراكية الأول " يقف في هذه الأيام، أمام لحظات مصيرية وحاسمة في تاريخه كلـه، منذ الثورة الاشتراكية الكبرى وحتى الآن.

مشكلتي الأساسية عندما أكتـب أن هـذه الأيـام، فـي موسكو، حاسمة ومصيرية، أكون قد دخلت إلى أرض اللغـة الممسوحة المعالم العاجزة عن الإيحاء بالدلالات التي أبحـث عنها، لأننا نقول هنا ـ في هذا الجزء من العالم ـ عن كـل الأيام أنها حاسمة ومصيرية، ثم يتضح لنا بالدليل العملي أن زمن الحسم قد ولى، وأن الأيام المصيرية تبدو كما لو كانت من ذكريات الماضي البعيد.

ومع هذا أجازف وأقول، أن الأيام الحاسمة والمصيرية تطل على موسكو وجميع بلاد السوفييت، وبصرف النظـر، إن كان الحسم إيجابا أو سلبا، بمنطق الفعـل أو رد الفعـل، بالثورة أو الثورة المضادة، فإنه يقف على أبـواب موسـكو يتربص بتلالها السبعة الشهيرة.

نكتة:

ومن يصل إلى موسكو، يسمع نكتة على شكل حكايـة، أرويها هنا على سبيل الدخول إلى رواق موضوعي، لأنهـا تلخص الكثير مما يجري الآن في بلاد السوفييت.

يقولون إن فلاحا قصد موسكو لأول مرة، فـي محطـة القطار الرئيسية قابل قريبا لـه مـن الـذين يعيشـون فـي العاصمة، سأله ما الذي أتى به إلى موسكو، قال الفلاح إنـه جاء إلى موسكو ليقضي ثلاث حاجات، الأولى: أن يتمكن من شراء بدلة مستوردة من الغرب، من تلك البدل التـي بـدأت تنتشر أخيرا في البلاد، والثانيـة: بعـد أن يشـتري البدلـة ويرتديها بدلا من الأفرول الذي يلبسه، يـذهب لأول وآخـر مرة إلى مسرح البولشوي الذي قضى عمره كله يسمع عنه، وإن لم يذهب إليه من قبل أبدا، ويخشى أن ينقضـي العمـر دون أن يراه، والثالثة: أن يزور ضريح لينين، وأنه يريد أن ينجز هذه المهام الثلاث في أسبوع واحد، ويعود في نفس هذا اليوم إلى بلده.

قال له قريبه، إنه يشك في قدرته علـى فعـل أي مـن الحاجات الثلاث، لسبب بسيط أنه هو نفسه يعيش في موسكو منذ ربع قرن دون أن يتمكن من فعل أي منها.

بعد أسبوع بالضبط، تقابلا في محطـة القطـار، كـان الفلاح قد تمكن فعلاً من إنجاز حاجاته الثلاث، وعندما سأله قريبه ساكن المدينة كيف تمكن من تحقيق هـذه المعجـزات الثلاث وفي أسبوع واحد فقط؟

قال له:

ـ في متجر بيع البدل الأجنبية، قال لمدير المتجر إنـه يريد بدلتين، وقبل أن يعترض المدير ويقول إنها بدلة واحدة فقط، قال له الفلاح إنه يريد واحدة لنفسه والثانية يقدمها هدية له ـ أي لمدير المتجر بمناسبة تعارفهما ـ وعلـى الفـور جاءته بدلة أنيقة وجميلة ومناسبة للونه وشكله ومقاسـه وإن كان قد دفع ثمن بدلتين.

في مسرح البولشوي قال لعاملة شباك بيع التذاكر إنـه يريد ثماني تذاكر في أقرب فرصة ممكنـة، يحصـل علـى واحدة فقط، أما السبع الأخرى ، فيقدمها هدية لها ـ لعاملـة شباك التذاكر ـ وهكذا حصل على تذكرة واحدة فـي نفـس

اليوم ـ وهذا ما لم يحدث من قبل أبدا ـ وإن كان قد دفـع ثمن ثماني تذاكر.

ـ وضريح لينين.. ماذا فعلت إذن؟

سأله قريبه متلهفًا..

ـ بسيطة، حملت صندوق فودكا معي، المشروب الذي أصبح ممنوعا، والحصول عليه ليس سهلاً أبدا، وإن وجدتـه لا تجد أكثر من زجاجة واحدة.. ذهبت إلى المسئولين عـن الضريح وقدمت الصندوق هدية، أخذوه بسعادة، وقالوا اذهب إلى الفندق الذي تقيم به، وسنحضر لك لينين حتـى غرفتـك بالفندق حتى تشاهده على راحتك، وتتكلم معه إن شئت.

وأسأل بعد هذه النكتة الروسية الطويلة.. هل وصـلت الرسالة؟

لوحة:

واللوحة كانت معروضة في شارع الفنانين فـي قلـب موسكو شارع " أربات "، ويقولون إن أصل اسـم الشـارع عربي، فهو إما مأخوذ من كلمة " عربات " العربية أو يعـد تطويرا لكلمتي مربط الخيل العربيتين أيضا، وأن هذا الشارع

كان نهاية قوافل السفر التجارية العربية التي كانت تصل إلى موسكو محملة بالبضائع.

أربات الآن هو شارع المتفننين، في كل فن من الفنون، واللوحة رسمها فنان ووقف يعرضها للبيع صباح يوم الأحد، وهو يوم السوق الأسبوعي.

في اللوحة ثلاثة قديسين، الأوسط لـه ملامـح وجـه ستالين، وفي يده بلطة تسيل منها قطرات الدماء التي تنـزل على صحيفة البرافدا، وكتب ماركس ولينين، علـى يمينـه ينظر بريجنيف بتأفف إلى ما يجري، وعلى يسـاره ينظـر خروشوف بسخرية.

وفي نفس الأسبوع الذي كانت تعرض فيه هذه اللوحـة للبيع في شارع أربات، نشـرت نشـرة تصـدرها اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي النص الكامل والـدقيق لرسالة خروشوف حول عهد ستالين، وهي الرسـالة التـي نشرت من قبل في الغرب محرفة ومضافًا إليها، ومحـذوفًا منها، وهي تنشر في الاتحاد السوفييتي ولأول مـرة، ومـن خلال نشرة اللجنة المركزية.

لكن البعض يرى أن حكايـة الهجـوم علـى سـتالين وعصره يبدو مثل الطبخة التي سبق أن أكلت من قبل أكثـر من مرة وهضمت، والإقبال عليها من جديد، يبـدو مسـألة صعبة.

جوهر الأزمة:

وأصل المشكلة أن المواطن السوفييتي العادي، يشعر أنه تعب من الاستماع إلى كلام لا نهاية لـه، دون أن يـرى أي إنجاز حقيقي خلال استماعه إلى كل هذه الكلمات، والفيصـل ـ من وجهة نظر هذا المواطن العادي ـ هو الإنجاز والفعل وتحسين حياته، فالكل يتفق على أن عملية إعادة البناء كانت ضرورة، وكان لا بد منها في هذا الوقت بالذات، فمن غيـر المعقول أن دولة عظمى مثل الاتحاد السوفييتي، التي وصلت إلى القمر وتقدمت في مجال التصـنيع العسـكري بصـورة منافسة للغرب، ومع هذا ما زالت صناعة الجوارب ـ مـثلاً ـ أكثر من متخلفة، مع إهمال شديد لأمور بسيطة قد يحتاج إليها المواطن العادي في حياته اليومية.

عند هذا الأمر يتفق الجميع، ولكن بعـد هـذا، يجـري الخلاف حول عملية إعادة البناء نفسها، وفي أي اتجاه تسير، فهناك قطاع عريض من المثقفين ومن أبناء الشعب يؤيـدون هذا الاتجاه الجديد، ويبدون سعادة حقيقية بهذا الذي يجـري، ويجربون ـ لأول مرة ـ الجو الجديد، من الحريات التي لم تكن موجودة من قبل.

لكن هناك قطاعا عريضا آخر من الشعب، ينظر إلـى هذه الإصلاحات، بقدر من الريبة والشك، ويرى أنها اقتراب من المنهج الغربي في الحكم وفي العمل، وهؤلاء المتشككون يقال عنهم " الحرس القديم " أو المجموعات التـي أفقـدتها عملية إعادة البناء وضعها المتميز داخل السياق السـوفييتي، وأنها إنما تدافع عن مواقعها ومصالحها، وعموما فإنه مـن المسموح به الآن في الاتحاد السـوفييتي ـ ومـن خـلال القنوات الموجودة ـ أن تناقش عملية إعادة البناء وأن تقـال اجتهادات كثيرة حولها. لكن الرفض القاطع لها، يبدو عملية محفوفة بالمخاطر، لأن الرفض القاطع للتجربة السوفيتية قبل زمان جورباتشوف كان يقابل في العـادة بترحيـب غريـبي واضح، ومن يرفض كان يقال عنه " منشق " وكـان يلقـى

العناية المطلوبة في الغرب، ولكن يبدو أن زمان المنشقين قد ولى، والرجل الذي يقود البلاد نفسه أصبح نجما في الغـرب الرأسمالي. وما يفعله يقابل بترحيـب فعلـي فـي الإعـلام الغربي، بل إن تصريحات بعض المسئولين الغربيين تـذهب إلى ضرورة تقديم العون لجورباتشوف حتى يمضـي فـي طريقه إلى آخر الشوط.

الذين ينتقدون تجربة جورباتشوف، يقولون في مجالسهم الخاصة إن السفارة الأمريكية في واشنطن مشـغولة ـ فـي هذه الأيام ـ بعمل دراسة مقارنة عن السادات ومصر فـي منتصف السبعينيات، وجورباتشوف والسوفييت في النصـف الثاني من الثمانينيات، وأن هناك أوجه تشـابه كثيـرة بـين التجربتين، وإن كان هذا الكلام لا يوجد دليل حقيقـي عليـه حتى الآن.

المخاطر:

لكن تجربة جورباتشوف تواجه الكثير من المخاطر، في سيرها، ومثقف سوفييتي يقول عن هذه المخاطر، إن أكبـر أزمة تواجه جورباتشوف أنه يحكـم بـلادا كانـت معظـم

إنجازاتها ـ على مدى السبعين سنة الماضية ـ في الميـدان الخارجي، بينما ترك الميدان الداخلي للعمـل بقـوة الـدفع الذاتي، ابتداء من الثورة الاشتراكية الكبرى، ووصولاً إلـى بروسترويكا جورباتشوف نفسها، فإن الإنجاز الخارجي يسبق الإنجاز الداخلي تماما، سواء أكانت الحرب العالمية الثانيـة، أو غزو الفضاء، أو السباق النووي، أو الوقوف مع قضـايا العالم الثالث، أو المجابهة مع العـالم الرأسـمالي، وإعـلان الحرب الدائمة ضد الإمبريالية.

وربما كانت هـذه الإنجـازات الخارجيـة مطلوبـة، وضرورية، ولكن كان لابد أن تواكبها إنجازات الداخل أيضا وفي نفس الوقت.

والذين يقفون مع جورباتشوف، والذين لهـم تحفظـات على إجراءاته، يتفقون على أن هناك قدرا من المخاطر التي تهدد التجربة الآن. ومجرد الحديث عن هذه الأمور، جديـد تماما على الاتحاد السوفييتي الذي لم يكن أحد يجرؤ فيه على الكلام من قبل، حتى في أبسط الأمور.

الاقتصاد هو أول المخاطر على التجربـة، والمـواطن السوفييتي لكي يلخص هذه التجربة يقول باختصار وببساطة

شديدتين إن الأموال أصبحت الآن مثـل أوراق اليانصـيب امتلاكها لا يعني القدرة على الشراء. تنزل الأسواق ومعـك المال اللازم، ولكن الكثير من البضائع لا وجود له، بضـائع كان من المستحيل عدم وجودها من قبل، هـذا يحـدث فـي موسكو العاصمة، فما بالك بالحال في البلاد الأخرى، والمدن الصغيرة والريف والجمهوريات النائية.

وهذا أمر طبيعي، ذلك أنه توجد حالة مـن الاسـتهلاك الجديد، والإقبال على شراء البضائع، ولكن القدرة على تلبية هذه الحاجات ما زالت محدودة.

والخلل الاقتصادي من الأمور التي تخرج مـن دائـرة حديث المجالس وتصل في بعـض الأحيـان إلـى مقـالات منشورة في بعض الصحف حتى الرسمية جدا منها.

وندرة البضائع ليست المشـكلة الاقتصـادية الوحيـدة، وهناك أزمة " اقتصاد الظل "، والتعبير ليس من عندي ولكنه من مقال منشور في صحيفة " أنباء موسكو " والمقصود بـه تجارة العملة خارج القنوات الرسمية أو ما نسميه نحن فـي أدبيات الكتابات الاقتصادية المصرية السوق السوداء للعملة، وعلى الرغم من أن الدولار في البنك يساوي ٦٠ كابيـك أي

حوالي ٦٠ % من الروبيل الروسـي، إلا أن الـدولار فـي الأسواق السوداء أو في اقتصاد الظل يصـل إلـى عشـرة روبلات.

وهناك حديث عن مافيا تعمل في سوق العملة، تتميـز بالانضباط الشديد وتوزيع الأدوار والعمل الدقيق.

أيضا فهناك حالة من " الشبق البضائعي "، الذي يتعدى حدود النهم المعروفة، وهذا الشبق موجه في الأسـاس إلـى البضائع الأجنبية.

وحتى توفر الدولة هذه البضائع الأجنبيـة ، وتحـارب سيكولوجية عمليات الظل، قامـت شـركة " فنسـينا " فـي موسكو، بافتتاح مخزن، يحتوي ولأول مرة على كمية كبيرة من البضائع التي يرغـب الأجانـب والسـياح فـي بيعهـا للمواطنين السوفييت.

الشركة أعلنت في الصحف تقول: خلال خمس دقـائق فقط تحل جميع معضلاتكم المالية. والإعلان المنشور كـان بأربع لغات أجنبية.

والمخزن هو مخزن يودراكي في شارع كالنين، وهـو يتولى بيع ما يرغب السائح في بيعه مقابـل عمولـة ماليـة

قدرها ١٥ % من الثمن، ٧ % منها تحسب قومسيون، و ٨ % تحول إلى صندوق لرعاية المدينة.

في شهر واحد فقط كان الشراء بـ ٥٨ ألـف روبـل، والبيع بـ ٦٩ ألف روبل، وهناك فكرة إنشاء محلات أخرى في كل الفنادق والمطارات والموانئ والأمـاكن الحدوديـة. والذين يقبلون على بيع ما معهم بهذه الطريقة هـم السـياح القادمون من: بولنيا، بلغاريا، يوغوسلافيا. بلـدان الشـرق الأوسط، أما السياح القادمون من البلـدان الرأسـمالية فـلا يفكرون في الاقتراب من هذا المخزن.

اللوبي:

من مخاطر الوضع الجديد في بلاد السـوفييت تنـامى الدور اليهودي بصورة قد تحمل معها الخطر فـي القريـب، جورباتشوف قرر إعادة افتتاح مركز ثقـافي يهـودي فـي موسكو كان معطلاً عن العمل منذ زمـان سـتالين، تولـت الإنفاق عليه الجالية اليهودية في أمريكا، ويوم افتتاحه وجـه إسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل رسالة إلـى القـائمين

عليه، مما أكد أن هذا المركز قد يلعب دورا سياسيا متناميـا في الفترة القادمة.

بعض الذين يتخوفون من هذا النفوذ ينظرون بقدر مـن الخشية ويقارنون بحال اللوبي الصهيوني في أمريكا وقدرته على التأثير في مجريات الأمور هناك، ويقولـون إن هـذا التحرك اليهودي يقابله غياب عربي شبه كامل في العاصـمة السوفيتية.

وهذا التنامي عبر عن نفسه من خلال أمرين:

الأول: هو استراتيجية اليهـود السـوفييت قـد جـرى تغييرها بصورة جذرية في الفترة الأخيرة. فبعـد أن كانـت الهجرة من البلاد هي المطلب الأول لهم، أصبح البقاء هـو الموقف الرئيسي عندهم، ثم يبدأ العمل من الداخل، وتراجعت كل الحكايات التي كانت تقال عن تسهيل هجرة اليهود مـن الاتحاد السوفييتي، وضمان وصولهم إلى إسـرائيل، بـل إن البعض يقول إن القانون السوفييتي الذي يشترط علـى مـن يهاجر عدم العودة مرة أخرى إلى البلاد هو السبب، الوحيد، في عدم عودة بعض من هاجر فعلاً من قبل.

الأمر الثاني: هو ما يجري في أوساط المثقفين بالذات، فهناك حالة من التحول، التي ربما أثرت على وقوف الاتحاد السوفييتي مع الحق العربي، في المستقبل.

في منتصف هذا الشهر، يزور الاتحاد السوفييتي وفـد من الكتاب الإسرائيليين ـ ولأول مرة ـ منذ عدوان يونيـو سنة ٦٧. وفي الشهر القـادم، يـزور الكاتـب السـوفييتي جنكيزاتيماتوف ـ والذي يعد الآن أشهر الكتاب السـوفييت على الإطلاق ـ إسرائيل بدعوة من اتحاد كتابها ويبقى فيها أسبوعا.

هذا، وقد توجه عدد من المثقفين الفلسطينيين إلى عـدد من الشخصيات السوفيتية الكبيرة في مختلف المجالات التـي عرفت بدفاعها المستمر عن اليهود السوفييت، يطلبون مـنهم إصدار بيان تأييد للانتفاضة وتنديدا بـالإجراءات الوحشـية والقمعية التي تمارسها إسرائيل ضد الانتفاضة. وقد كان الرد أنه من الصعب إصدار مثل هذا البيان. ذلـك أن القـائمين بالانتفاضة ـ هكذا يرى مناصرو اليهود السـوفييت الأمـر ببساطة مذهلة ـ يمارسون هم أيضا القتل والإرهـاب ضـد الدولة الإسرائيلية.

وحكاية اليهود يمكن أن يقال إنها من مخاوف العـرب المشروعة ومن أشكال القلق الفلسطيني التي لا بـد منهـا، والسبب أعمق من هذه المظـاهر، فالـذين قـرءوا كتـاب جورباتشوف " البيروسترويكا " يقولون أنه يتحدث عن قضية الشرق الأوسط في سطور معـدودة وبـدون عمـق فنـي، ومشروعية المخاوف والقلق أن الاتحـاد السـوفييتي كـان نصيرا أساسيا للحق العربي المشروع، والحـق الفلسـطيني الذي وقف معه السوفييت بصورة جيدة.

الهوية:

القضية الأيديولوجية هي الخطر الثالث الذي ربما يهدد ثورة جورباتشوف، والأزمة تنشأ من أن الثورة هذه المـرة يقودها سيد الكرملين، أي أنها ثورة من أعلى ووجهت بثورة مضادة، وبين الثورة والثورة المضـادة تتعـرض بـديهيات الماركسية اللينينية لخطر حقيقي، والكل يقول إن جذور مـا قام به جورباتشوف موجودة فعلاً منذ أيام أندروبوف، لكـن إن كان هدم القديم سهلاً وميسورا، فإن التحـدي الأساسـي دائما هو بناء البديل لهذا الذي تم هدمه. ثمة حالة من التداخل

الشديد بين الماضي والجديد، بين كل ما كان قائمـا، وبـين الوليد الجديد الذي يحبو الآن في بلاد السوفييت.

والماركسية اللينينية نفسها تعرضت عمليـات تطـوير واجتهادات أساسية، سواء في الماركسية اللينينية من خـلال الأحزاب الشيوعية الأوربية ـ بالذات الموجـودة فـي دول أوروبا الغربية ـ أو في بعض التجـارب الأخـرى داخـل المعسكر الاشتراكي نفسه مثل رومانيا ويوغوسلافيا بالذات.

لكن التطوير الذي يجري في موسكو، يبدو الهجوم على القديم أكثر حضورا من محاولة بناء الجديد، إن الكل يبـدو مشغولاً بتحرير شهادة وفاة الوضع الذي كان، مع أن الأصل والأساس هو تحرير شهادة ميلاد الوضع الجديد، ذلـك مـا يستحق الاهتمام الأول.

والوضع الجديد، لا يمكن أن يقوم بتشييده كلام وأقـوال فقط، ولكن بناء نظري متكامل، يقوم على أسـاس تطـوير الماركسية اللينينية نفسها، التي أرست دعائمها ثورة أكتـوبر الاشتراكية الكبرى. وهذا الجهد التنظيري مطلوب أكثر مـن كل هذه الحملات للهجوم على ستالين وزمانـه وإنجازاتـه وتجاوزاته أيضا.

خاصة أن التمادي في الهجوم على ستالين وعلى ما فعله بالبلاد، قد يولد حالة من محاولة الانتصار على الماضي، وكل هذا يشغل الجميع عن مواجهة الوضع الراهن، الذي يتطلب مواجهة حقيقية وحاسمة، وموضوع الهوية ليس ترفًا يمارسه المثقفون فقط، ولكنه أمر مهم وضروري ولا بد منه من أجل استمرار التقدم بقوة دفع كافية لما يرمي إليه جورباتشوف.

جورجيا:

كان إدوارد شيفرنادزة وزير خارجية الاتحاد السوفييتي يستعد للسفر إلى ألمانيا الغربية، عندما صدرت له التعليمات بإلغاء رحلته على الفور والتوجه إلى جورجيا باعتبارها جمهوريته التي ينتمي إليها، وباعتبار الرجل سكرتيرا أولا للحزب الشيوعي فيها.

وخطورة ما جرى في جورجيا أنه لأول مرة تطرح قضية الاستقلال التام عن اتحاد الجمهوريات السوفييتية، وجورجيا ليست من المناطق النائية أو البعيدة أو الحدودية،

بل هي في قلب البلاد، وهي كما يقال أيضا تعد معدة الاتحاد السوفييتي.

ومنذ مجيء جورباتشوف وهناك نعرات قومية تثور هنا وهناك، لكنها كلها كانت تدور حول شكل من أشكال الحكـم الذاتي، في إطار الدولة ككل، وكان البعض يرى أن زلزال " أرمينيا " قد أثبت لهذه القوميات أنه لا مفر مـن الارتبـاط بالدولة الأم، وأن هذا العصر لم يعد يعرف الكيانات الصغيرة ولا بد من دول كبرى، حتى تكون هناك قدرة على مواجهـة ظروف الحياة الصعبة، ولكن يبدو أن هذا الكلام فيـه مـن التفاؤل، القدر الكبير الذي ربما يتفوق على حقائق الواقع.

والاتحاد السوفييتي ليس دولة، ولا مجرد تجمع من عدد من الجمهوريات، ولكنه كشكول كبير ورحب ومتسع، فيـه العديد من القوميات واللهجات والأديان والأمزجة، يبدأ مـن المزاج الأوروبي في غرب الـبلاد، ويصـل إلـى الـروح الإسلامية، وإلى أجواء شرق شمال آسيا في بعض الأحيان، من ناحية الطقس أو المناخ فإن الأمور تبدأ من حرارة منطقة الشرق الأوسط، وتصل إلى ثلوج سيبيريا.

والدولة القوية كانت هي صمام الأمان الأساسـي لهـذا الكشكول الكبير، وجو الحريات الذي منحه جورباتشوف فتح الباب الذي أغلق منـذ زمـان سـتالين علـى مصـراعيه، واستمرار فتحه قد يؤدي إلى تقويض فكرة الاتحاد السوفييتي من الأساس.

ميخائيل جورباتشوف، قال بحزم بعد أحداث جورجيـا أنه لا بد من التفرقة التامة بين مطلب إعادة صياغة علاقات القومية المختلفة في الاتحاد السوفييتي، وهو مطلب مشـروع ولا بد من النظر فيه، وبين عملية تقويض الأساس الجوهري الذي قام عليه الاتحاد السوفييتي، وأية محاولة في هذا الاتجاه ستقابل بكل قوة.

لكن من الصعب أن يبقى الموقف كله في دائرة الفعـل ورد الفعل فقط، بمعنى أن يتم الانتظار لحدوث حادث ما، في أي من هذه الجمهوريات، ثم مواجهته سواء علـى الصـعيد الأمني أو من خلال المواجهة السياسية، ولا بد من مواجهة شاملة، تسعى إلى مكان القضية ولا تنتظر انفجارها من أجل بقاء واستمرار الاتحاد السوفييتي مستقبلاً.

الفساد:

والقول إن الفساد هو الخطر الخامس فيه قدر من عـدم الدقة. فالفساد جزء من حالة من الجرائم العامة التي لم يكـن لها وجود من قبل في هذه البلاد التي تميزت منـذ الثـورة الكبرى بقبضة قوية لجهاز الحكم تصل هـذه القبضـة إلـى أصغر التفاصيل في البلاد.

وسواء كان الفساد أو كانت الجريمـة، فإنهـا تجعـل المواطن العادي يقول في بعض الأحيان أن زمن ستالين بكل عيوبه في مسألة الحريات كان يوفر الاحتياجـات الأساسـية ويضمن وصولها إلى الناس.

وربما كان هذا الفساد موجودا من قبل، وبـنفس القـدر ولكنه لم يكن يصل إلى الناس، وقبل زمان جورباتشوف لـم يكن مسموحا حتى بنشر الجرائم التي تحـدث فـي الـبلاد، والبعض يرى أن الفساد أقل مما يكتب عنـه، ويقولـون إن الإعلام الغربي يضخم كثيرا من حالات الفساد ومن الجرائم من باب إظهار أن التجربة الاشتراكية وصلت إلـى طريـق مسدود، في حين أن المجتمـع الرأسـمالي يبـدو مزدهـرا ومستمرا ومتقدما.

ولكن ثمة دراسة قام بها الحقوقيون السوفييت على ٥٠٠ قضية من القضايا المنظورة في المحاكم. يؤكدون ازدياد عدد الجرائم بصورة متنامية، خاصة تلك التي يشترك فيها رؤساء المؤسسات وهيئات التفتيش ورؤساء المنظمات الاجتماعية.

وقد انتشرت ظواهر كانت من قبل جزءا من الواقع الرأسمالي فقط، مثل الدعارة والبغاء، فقد نشرت الصحف السوفيتية نفسها أن دخل العاهرة السنوي - التي من صفوة العاهرات - يصل إلى ٣٠ ألف روبل في السنة، وأنها تحصل لنفسها على نصف هذا المبلغ فقط، في حين أن الباقي يذهب إلى البوابين والأطباء والباطجية.

وأن من يتعامل في سوق العملة يتقاضى أحيانًا ٢٠ ألف روبل مرة واحدة في نقل العملة من مكان إلى آخر، ومن تاجر إلى سواه، بل إن بنك الدولة ووزارة الداخلية قد أجريا معا مناقشات مفتوحة حول موضوع تجارة العملة فاتضح من هذه المناقشات أن ٥ % من الأموال التي تتحرك في البلاد إنما يتم تداولها في السوق السوداء.

والسبب الجوهري في كل هذا الخلل إنما يعود إلى أن الرغبة في الحصول على الأموال، تبدو الآن أكثر من أي

وقت مضى، ذلك أن التطلعات الاسـتهلاكية كثيـرة، وقـد فتحت عن آخرها.

وإن كانت هناك محاولات للحد من هذا الفساد، وبالنسبة للمحلات التي كانت تخصص مـن قبـل لشـراء القيـادات السياسية الحزبية، وهي محلات فيها كل شيء، والبيع فيهـا بموجب كوبونات من الحزب. هذه المحـلات الخاصـة قـد جرى اختصارها أخيرا ـ ولأول مرة ـ حيـث أصـبحت مقصورة على الكادر القيادي الحزبي فقـط، أمـا القيـادات المتوسطة فلم يعد من حقها الشراء منها، وربما كـان ذلـك مقدمة لإلغاء مثل هذه المحلات من الأساس.

إنجازات:

من يقل إن الصورة كلها عبارة عن مخاطر ومخـاوف يكون مبالغًا وربما متجنيا، وقد ذهبت إلى الاتحاد السوفييتي ومنذ أن قرأت كتاب جورباتشوف لي الكثير من التحفظـات الشخصية على التجربة كلها، كنت أرى وما زلت، أن الأمر هو تحول جوهري على النهج الاشتراكي، وتطوير ليس من داخل التجربة، ولكن على أساس الأخذ من النقيض الآخـر،

أقصد من التجربة الرأسمالية، التي لا تبدو لديها أيـة نوايـا للأخذ من التجربة الاشتراكية بنفس القدر أو بأقل منه.

لكن رؤية الأمر على الطبيعيـة أكـدت لـي أن ثمـة إنجازات في الأمر.

الديمقراطية هي الإنجاز الأول، وإن كان يشوبها عيبان: الأول: إنها موجهة للغرب، لتحسين الصورة التقليدية القديمة المعروفة عن بلاد السوفييت، والثاني: إنها ـ حتـى الآن ـ ديمقراطية التعبير أكثر منها ديمقراطية المشاركة، بمعنى أنها ديمقراطية تتجلى في حرية الكلام والكتابة أكثر منها مشاركة في صياغة مقدرات البلاد.

ولكن حتى في إطار هذه النظـرة، يمكـن القـول إن انتخابات جرت فعلاً، وأن هناك ناجحين وهناك من فشل في النجاح وبعض الذين فشلوا من القيادات الحزبية الذين هيمنوا على مقادير البلاد من قبل، وأن بعض الأعمال التي كانـت ممنوعة من النشر تصدر الآن، وبعض الأفلام التي كانت من المحرمات تعرض، وأنه يجري البحث عن إيجاد شـكل مـا يعمل من خلاله، الذين يختلفون مع الحزب، على شكل منابر

أو تيارات داخل نفس الحزب وهو ما قد يؤدي إلـى وجـود أحزاب أخرى غير صيغة الحزب الواحد.

كذلك فإن الصحف السوفييتية تقطع المسـافة الآن مـن كونها كانت مجرد نشرات دعائية لا تبقى في يـد القـارئ سوى دقائق معدودة، إلى أن تصبح صحافة حقيقية، تنـاقش وتختلف وتشتبك مع الواقع في علاقات ساخنة وحية، كـذلك فقد تنوعت الصحف والمجلات بصورة لافتة للنظر.

عند الحديث عن الدين لا بد من القول إنه تم في عـام ١٩٨٨ تسجيل ١٦١٠ رابطات دينية جديدة، في حين أن عام ١٩٨٧ شهد تسجيل ١٠٤ رابطات فقط والروابط التي سجلت هي: ١٢٤٤ رابطـة أرثوذكسـية روسـية ٧٢٠ رابطـة، أرثوذكسية جورجية، ١٧ رابطـة كاثوليكيـة، ٤٨ رابطـة إسلامية، و ٣٦ رابطة أخرى، وتمت الموافقة علـى بنـاء ١٤٣ دارا للعبادة، وتم وضع ٩٣٧ مبنـى تحـت تصـرف المؤمنين، وتوجد ١٦ مدرسة ثانوية دينية يتعلم فيهـا ٢٨٨٢ طالبا.

وفي مارس الماضي عقد المؤتمر الرابع لمسلمي آسـيا الوسطى في طشقند وكانت مطالبهم وملاحظاتهم هي: إقامـة

مساجد جديدة، نقص نسخ القرآن الكريم، نقص الكتب الدينية بوجه عام.

وقد تمت إعادة مصحف عثمان للمسلمين وكان محفوظًا من قبل في المتحف، وفي فبراير الماضي تـم افتتـاح ٢٥ مسجدا في أوزبكسـتان و ٦ فـي طاجيكسـتان و ٣ فـي تركمانيا، ومن المتوقع أن تصدر طبعة جديدة مـن القـرآن الكريم من ٥٠ ألف نسخة.

والمسلمون يرون فيما يجري في الاتحاد السوفييتي أنه إجراءات تطهيرية، وأنهم سعداء بالموقف الجديد من إدمـان الخمور والمخدرات ومحاولة الحد منهما، والحـرب علـى الرياء والطمع في المال والإقبال على الرشاوي. ويقولـون إنهم أعلنوا قبل جورباتشوف حربا على هذه الأمور وكـانوا يتصورون أنهم وحدهم في الميدان يكافحون، إلى أن أصـبح هناك كفاح عام في نفس الاتجاه.

وإن كان الموقف من الدين يعد من الإيجابيات، إلا أنـه قد يحمل في القريب بعض السلبيات، فالملاحظ في موسـكو أن كل الفتيات يعلقن الصلبان في صدورهن بصورة تـذكر بما كان يجري في مصر من أوائل السبعينيات عند مقـدمات

الحجاب، ولم ندرك ذلك جيدا في هذا الوقـت، كـذلك فـإن مظاهر التردد على الكنائس فيها بعض المبالغات أحيانًا.

حيث شاهدت شابة صغيرة، تقف على أبواب كنيسة في قلب موسكو، وبالقرب من الميدان الأحمـر حيـث ضـريح لينين، وقد ركعت على ركبتيها على أبواب الكنيسة.. وحملت ترابها ورسمت بالتراب علامة الصليب على جبهتها وكتفيها، ثم دخلت الكنيسة.

بقي أن أقول أن كل ما قلته عن تجربة السوفييت هـو من قبيل الكلام الذي يقال من داخل البيت نفسه، لقد كان من أحلام عمري كلـه أن أرى ذات يـوم أول وطـن يطبـق الاشتراكية، الحلم الذي تربينا عليه. وكـل حلمـي الآن ألا يصبح الوطن الأول للاشتراكية هو في نفس الوقت وطنهـا الأخير.. ومن أجلي يبقى الحلم، وأن يمتد ويتفرع، كان لا بد من كتابة كل ما كتبته، لسبب آخر يتصل باسـتمرار وبقـاء وازدهار وتقدم التجربة السوفيتية، ذلك أن استمرار التجربـة واحد من أهم أحلام العمر كله.

نجمة داود
تظهر في سماء موسكو

أعرف جيدا، أننا، مصريين كنا أو عربا، آخر من يحق له انتقاد الاتحاد السوفييتي، بشأن أية خطوات يتخـذها فـي اتجاه إقامة علاقات مع العدو الصهيوني، فمصر مجروحـة منذ أن اغتصب السادات إرادتها ووقع على اتفاقيات " كامب ديفيد ". و " كامب ديفيد " التي كانت ساداتية فقط، تقف الآن على أبواب القبول العربي.

لدرجة أن الإنسان يتوقف في بعـض الأحيـان، فـي منتصف المسافة بين الدهشـة والـذهول وعـدم التصـديق ويتساءل: فيم كانت الغضبة العاتية على السادات والـرفض؟ فالكل يوشك أن يصبح " ساداتًا " آخر، مع أن ما يفصلنا عن كامب ديفيد الأولى عشر سنوات فقط.

تلك حكاية أخرى، ولنعد إلى موضوعنا، لقـد قاطعنـا العدو الصهيوني لأن بيننا وبينه أرضا مغتصـبة، وحقوقـا استولى عليها، وصراع إرادات لم ولن ينتهـي أبـدا، أمـا الاتحاد السوفييتي فكانت القطيعة وقوفًا سياسيا منه مع الحق

العربي، وتماشيا مع سياساته المبدئية، ويكفي السوفييت أنـه مرت عشر سنوات على علاقات الحكومة المصرية مع العدو الصهيوني، ومع هذا لم تقم بينه وبين " عدونا " هـذا حتـى الآن علاقات دبلوماسية.

ولكن في نفسي مرارة من تلك الإشارات التي تصـدر كل يوم من تل أبيب باتجاه موسكو، والإشارات التـي تـرد عليها من موسكو إلى تل أبيب، هذه المرارة لا مفر مـن أن تبقى في حدود المرارات الشخصية المشروعة، التـي ربمـا عبرت عن نفسها بانفجار أو أي شكل آخر، ولكنها لا تصل إلى حد اللوم أو الانتقاد أو الإدانة، فجرح كامب ديفيد الـذي كان ساداتيا مرشح هذه الأيام لأن يصبح واحدا مـن جـراح "كل العرب ".

التفرقة واجبة بين أمرين أولهما: الغزل الجديد والطارئ والمؤلم بين بلاد السوفييت والعدو الصهيوني، وما يمكن أن يسببه من مرارة لآخر أبناء العرب الباقين القائمين على عهد الزمن الذي يوشك أن يصبح ماضيا تاما. خصوصا أن هـذا الغزل، اختار زمن الانتفاضة الفلسـطينية البطلـة، زمـن الوضوء بالدم الفلسطيني كل يوم، لكي يتم فيه، وحتى الآن،

لا أتصور، مجرد تصور، كيف يقبل الرفاق في موسكو هذا التوقيت لغزلهم مع العصابة التي تحكم تل أبيب.

ثانيهما أنه لا بد من التفرقة بين هذا الغزل، وبين تنامي النفوذ الصهيوني داخل موسكو، الذي يتعدى الموقـف منـه الألم والمرارة، لأن الأمر يتطلب منا وقفة موضـوعية مـع الحليف السوفييتي، وهذه الوقفة تنطلق من حبنا له، وحرصنا عليه، وإدراكنا أنه الحصن الأول والأخير لنا فـي صـراع الوجود ـ وليس صراع الحدود ـ مع العدو الإسرائيلي.

التنامي الصهيوني في بلاد السوفييت يشكل خطـرين، خطرا يهدد " وطن الاشتراكية الأول "، وخطرا آخر يهـدد وقوفه ـ الذي كان من حقائق الأشياء ـ معنا ومع قضـايانا العادلة.

أهل موسكو أدرى بشعابها، ولذلك لن أتحدث كثيرا عن الخطر الصهيوني الذي يهددهم، ولكني سأركز على الخطـر الذي يهدد أكبر حلفائنا في العصر الحديث بالتحديد، علاقـة هذا الحليف العظيم بنا.

علامات الخطر كثيرة، يعمل الآن المترجم المصـري، الذي يعيش في موسكو منذ سنوات، الدكتور أبو بكر يوسف

في وضع كتاب كبير عن تفاصيل ما يجري هناك، ولكنـي أكتفي بالآتي، وهو قليل من كثير:

- في العـام الماضـي قامـت الفنانـة السـوفيتية " اللابوغاتشوفا " بزيـارة إسـرائيل، وأعلنـت أنهـا حضرت لإطفاء ظمأ المحاربين الإسـرائيليين فـي رسـالتهم المقدسـة " ضـد العـرب الفلسـطينيين المتوحشين "، هكذا بالحرف الواحد.
- في العام الماضي أيضا، عندما وجهـت الحكومـة المصرية الدعوة للشاعر السوفييتي يفجيني يفتشـنكو لزيارة مصر، والمشاركة في احتفالات نوبل نجيـب محفوظ، خصوصا أن يفتشـنكو زار مصـر فـي الستينيات وألقى أشعاره فيها (*) .

(*) كثير من المعلومات الأساسية سبق ورودها في المقال السابق، وقد تركت المقالين كما هما دون تدخل لسببين: أولهما أن إعادة النشر لا تعطي الحق في الحـذف أو الإضـافة، وثانيهمـا: أن أهميـة وخطورة القضية قد تتطلب التكرار الذي هو مذكر الشـطار فـي جميع الأحوال والأحيان.

اعتذر يفتشكنو عن قبول الدعوة المصرية، وهـذا مـن حقه، ولكن ما جرى بعد ذلك ليس من حقه أبدا، فقد سارعت تل أبيب ووجهت إليه الدعوة لزيارة إسرائيل على أن تتم في نفس الوقت الذي كان من المفروض أن يحضـر فيـه إلـى مصر، وقد لبى الدعوة وسافر فعلاً إلى تل أبيب، وإن كان قد قال إنها زيارة " خاصة " وليست رسمية، فالكل يعرف هـذه المخارج القانونية والشكلية، فالزيارة هي الزيـارة بصـرف النظر عن شتى المسميات.

- وإن كان تصرف يفتشنكو تصرفًا فرديا وشخصـيا، فقد جرى في أبريل الماضي توقيع أول بروتوكـول تعاون بين اتحاد الكتاب السوفييت واتحـاد الكتـاب العبريين في إسرائيل، الذي نـص علـى التعـاون والترجمة وتبادل الزيارات، وأهمية هذا البروتوكول وخطورته تأتي من ثلاثة اعتبارات:

١- أنه وقع قبل وجود علاقات دبلوماسية بين البلـدين وربما كان توقيعه سابقة لم تحدث من قبل في دولة عظمى مثل الاتحاد السوفييتي، تراعي دائما الشـكل العام المقبول.

٢- إن اتحاد الكتاب السوفييت، نفسه، لم يجـرؤ علـى اتخاذ نفس الخطوة مع اتحاد كتاب الصين، مـع أن الخلاف السوفييتي ـ الصيني هو خلاف داخل نفس البيت وتحت نفس سقفه، ومن داخل نفـس العائلـة الاشتراكية.

٣- إن هذا البروتوكول وقع، في الوقت الذي وصل فيه قمع الانتفاضة إلى أقصى مدى له، وكـذلك إبعـاد الكتاب التقدميين من الأراضي المحتلة، وهدم البيوت واغتصاب الأراضي.

بعد التوقيع على البروتوكول، زار موسكو أول وفد من اتحاد الكتاب العبريين في إسـرائيل، علـى أن يقـوم وفـد سوفييتي برد هذه الزيارة، وتشترط إسرائيل أن يكون الوفـد من كبار الكتاب وليس من كتاب الدرجة الثانية وأن يكـون ضمن كتابه " جنكيزاتيماتوف ".

- ثم جرى افتتاح أول مركز ثقافي يهودي في موسكو، وقد جرى تمويل إقامة هذا المركـز بمنحـة ماليـة مقدمة من اللوبي اليهودي الصهيوني في الولايـات المتحدة الأمريكية [لاحظ الدلالة الخطيرة]، وعلـى

الرغم من كل ما قيل، من الجانب السوفييتي من أن هذا المركز هو عبارة عن نشاط ثقافي لا علاقة لـه بالسياسة، إلا أنه في يوم الافتتاح، ألقيت كلمة موجهة من إسحق شامير رئيس وزراء العـدو الصـهيوني وهي كلمة سياسية بالدرجة الأولى، حتى وإن دارت كلها حول أمور ثقافية.

افتتاح هذا المركز دفع إلى تعديل القـانون السـوفييتي الذي كان يمنع تعليم اللغة العبرية بصفة رسمية، ويعتبـر أن النشاط اليهودي هو نشاط معاد لأمن البلاد، وهذه النصوص تعود إلى زمن ستالين.

خلال الجدل الدائر في بلاد السوفييت، حول بريسترويكا جورباتشوف، وما إن تم فتح ملفات ستالين ـ مرة أخرى ـ حتى دخل اليهود على الخط، مذكرين المعاصرين بما جرى في أيامه، وفي هذا الباب لديهم الكثير من القصص المؤثرة، والحكايات المأساوية.

- هذه التطورات، جعلت اليهود السوفييت وإسـرائيل، يتفقان على استراتيجية جديدة، فبعد أن كانت الهجرة من الاتحاد السوفييتي هي المطلب الأول لهم، أصبح

المطلب الآن هو البقاء في الاتحاد السـوفييتي مـع محاولة تعديل وضعهم والحصول على مزايا جديدة، تمكنهم في النهاية من أن يصبحوا " لوبيا صـهيونيا جديدا " يحاول التأثير على مقدرات الحياة، وصناعة القرار السياسي في الاتحاد السوفييتي، ولم نعد نسمع كلمة واحدة، الآن، في الغرب عن هجـرة اليهـود السوفييت.

وهكذا بدأت حالة من الغزل بين الكتاب السوفييت وبين تل أبيب خاصة أنه يقال الآن، أن جائزة نوبل، كانت تمـنح من قبل للكتاب السوفييت المنشقين، ولكن العامل المـؤثر أو الذي سيصبح مؤثرا في قرارات مـنح هـذه الجـائزة الآن، سيكون الموقف من إسرائيل. وبالتالي انقسم الكتاب السوفييت إلى من يغازل الصهيونية، ومـن يقـف رافضـا لنفوذهـا، وهؤلاء يسمون " الكتاب الوطنيين السوفييت "، وأصبحت لهم رموز مهمة في الأدب السوفييتي المعاصر. يقف في مقدمتهم الروائي السوفييتي ـ ابن سيبيريا ـ فالنتين راسبوتين.

هوامش هذا الوضع كثيرة، منها المقال الذي نشر فـي إحدى المجلات السوفييتية يهاجم جمال عبد الناصر، ويهاجم

أحدهم منحه أوسمة بلاد السوفييت، صحيح أنـه أعلـن أن المقال لا يمثل الرأي الرسمي لموسكو وأن المجلة سـتعالج الأمر في عددها القادم، ولكن الجميع في موسـكو يعلمـون ويقولون إن عبد الناصر يهاجم باعتباره عـدو الصـهيونية الأول في الشرق الأوسط.

ومن يذهب إلى أي مكان له علاقـة باتحـاد الكتـاب السوفييت يلاحظ أن أية صور لها علاقة بالنضال الفلسطيني أو الشعراء الفلسطينيين الكبار قد تـم رفعهـا بهـدوء مـن المكاتب ونقلت، بهدوء أيضا، إلى صالونات المنازل.

ويلاحظ أيضـا أن الكتـاب والبـاحثين والمتـرجمين المتعاطفين مع الحق العربي يجدون صعوبة فـي الحصـول على عضوية اتحاد الكتاب السوفييت، بسبب سيطرة العناصر الموالية للصهيونية على شئون الاتحاد.

ثم كانت الخطوة الأخيرة، عندما تحولت موسـكو إلـى مكان لتطبيع العلاقات بين الأدباء والكتاب الإسرائيليين وبين الأدباء الفلسطينيين والعرب.

وكان إميل حبيبي قد حمل للقاهرة هذه الفكرة، لكي تتم في مصر، ولكن مصر العائدة إلى جامعة الـدول العربيـة، اعتذرت، فتقرر أن تتم في موسكو.

الفصل الأول من هذه الخطة، حدث في عشـق آبـاد، عاصمة جمهورية تركمانيا، حيث عقد مؤتمر للمثقفين مـن آسيا للبحث عن السلام، أخفى السوفييت عن الوفود العربيـة وجود وفد إسرائيلي مكون من الكاتب العربي: إميل حبيبي، والكاتب العبري ناتان زاخ. وحضر مـن مصـر: جمـال الغيطاني، يوسف شاهين، رشدي أبو الحسن، سعد الفطاطري ومن لبنان: حبيب صادق، وزينات البيطار، ومـن الأردن: خالد محادين. ومن اليمن الشمالي: علي حمود وعبد اللطيف الربيع. ومن اليمن الجنوبي: سعد الجناحي.

أي أن الهدف كان اللقاء الإسرائيلي الفلسطيني العربي، والآخرون مجرد تغطية، دون وجود تمثيل آسيوي حقيقـي. في ختام المؤتمر اقترح الأدباء العرب وجـود فقـرة ضـد الصهيونية باعتبارها حركة عنصرية. واعترض إميل حبيبي على ذلك وهدد الكاتـب الإسـرائيلي بالانسـحاب، وأخـذ

السوفييت جانب الإسرائيليين فتقرر أن ينتهي المـؤتمر دون بيان ختامي.

يجري الآن في موسكو عمل قوائم بالكتاب السـوفييت الذين لهم تحفظ على تنامي اللوبي الصهيوني في موسـكو، لأن هؤلاء الكتاب يخشون من الاضطهاد، ويخـافون مـن احتمالات الاغتيال، وهنا يبدأ الدوران العربي والفلسـطيني، في رسم حدود تلك الوقفة، التي لا بد منهـا، مـع الحليـف السوفييتي. ومن الوقوف مع الكتاب السوفييت الذين يعـدون الآن خط دفاعنا الأول، هناك في موسكو.

الانهيار ١٩٩١

ماذا جرى في
مهرجان موسكو السينمائي الدولي؟!

** أكثر من صديق سوفييتي سألني:

ـ لماذا جئتم تعرضون حربكم التي دارت في بر مصر عندنا؟!

لقد حضرتم متأخرين ست سنوات كاملة، فموسكو الآن لا تريد أن تشاهد شيئا عن الصراع الخالـد بـين الفقـراء والأغنياء، بل لا ترغب حتى في سماع كلمة الفقر أصلا.

صديق آخر قال لي إن هذا الفـيلم لـو عـرض قبـل البروبيسترويكا لحدثت مظاهرة في موسكو احتفالا به، ولكـن كل ما في البلاد قد تغير. لـيس حـول الصـراع الطبقـي وحروب الفقراء التي يحولها الأغنياء إلى مشاريع استثمارية. فقط، ولكن الموقف من الصراع العربي الإسرائيلي قد تغيـر من جذوره وأساسه.

بل إنه في الندوة التي أقيمت لمناقشة الفيلم، سأل رئيس الندوة صلاح أبو سيف مخرج فيلم "المواطن مصري"، مـاذا تتوقعون الموقف من هذا الفيلم، بعد أن تـم حـذف كلمـة

الاشتراكية من كل القواميس السوفييتية، وبالمناسبة ما رأيكم فيما يجري في بلادنا من إجراءات إصلاحية؟

ومنذ أن عرف من برنامج المهرجان أن هناك فيلما سوفيتيا مأخوذا عن قصة لإيتماتوف. قيل على الفور إن الجائزة الرئيسية لا بد أن تذهب إليه لأكثر من سبب. فصاحب القصة من أقرب المثقفين إلى جورباتشوف، ومن أكثرهم حماسا للإصلاحات ذات الطابع الغربي التي تتم.

هذا كله ليس تشكيكا في قرارات لجنة التحكيم في مهرجان موسكو، ولكنه يقال على سبيل الإيضاح فقط، وعموما فإن المشاركة في المهرجانات الدولية ليست بهدف الحصول على الجوائز فقط، ولكن الهدف الأبعد مدى هو التأثير في الآخرين والاحتكاك بهم. وإظهار المدى الذي وصلت إليه صناعة السينما في مصر.

قبل أن تعلن جوائز مهرجان موسكو بيوم. كانت معروفة في أروقة المهرجان. وما عرف هو الذي أعلن في الحفل الختامي. وكانت الجوائز كالتالي: الجائزة الكبرى للفيلم السوفييتي: الكلب الأبلق الراكض على حافة الماء مع شهادة تقدير خاصة من لجنة التحكيم.

جائزة أحسن ممثلة حصلت عليها الممثلة الفرنسية إيزابيل هوبير عن قيامها بدور " أمابوفاري " في رواية فلوبير الشهيرة، وأحسن ممثل حصل عليها مناصفة بطلا الفيلم اليوغسلافي، مع منح شهادة خاصة للفيلم الكندي: " الرقيق جدا " ومنح جائزة مالية قدرها مليون روبيل روسي للفيلم المكسيكي: " العمل المنزلي "، لأنه يمثل بداية استئناف الإنتاج السينمائي المكسيكي بعد فترة من التوقف.

كذلك فاز الفيلم الصيني " عرس الفتيات " بجائزة خاصة. وهكذا يكون المهرجان قد كرم ممثلة وممثلين وخمسة أفلام مرة واحدة.

فماذا جرى على مدى أربعة عشر يوما عرضت خلالها أفلام من ٢٢ دولة في مهرجان موسكو السينمائي الدولي السابع عشر. خاصة أن أمريكا لم تحصل على أي جائزة خلافا لكل توقعات التوازنات السياسية؟!

على بعد أمتار قليلة من الكرملين، أقيم مهرجان موسكو السينمائي الدولي السابع عشر. وفي السنوات السابقة كانت تتوسط أعلام الدول المشاركة في المهرجان صورة كبيرة لمؤسس الاتحاد السوفييتي لينين، ولكنها رفعت من مكانها

هذا العام. ولم يشاهدها الجمهور سوى في الفيلم الذي عرض في حفل الافتتاح عن تاريخ المهرجان القديم.

حفل الافتتاح كان قصيرا، لم تلق فيه أية كلمة رسـمية من أي مسئول ووزير شئون السينما حضر ولكنه لم يـتكلم ولم يوجه ميخائيل جورباتشوف رئيس البلاد ـ كما جـرى العرف ـ كلمة إلى المهرجان تتلى في حفل الافتتاح.

وألغي الاحتفال التقليدي، الذي كان يقام بعـد الافتتـاح مباشرة في مبنى الكرملين واستبدل به حفل استقبال في مطعم براج، ويبدو أن الهدف من هذه الإجراءات هو إضفاء الطابع غير الرسمي على المهرجان كله. تماشيا مع سياسة الدولـة التي تقوم على رفع يدها عن بعض الأنشـطة. وهـي مـن مطالب الغرب من القيادة السوفيتية الآن.

وإن كانت موسكو الرسمية قد تراجعت عن الاحتفال فقد احتل المسرح كله قطار يتحرك ولكن ببطء. والقطـار لـه وجود قوي في حياة الروس. وكان من المفترض أن يحتـل صفحات لا نهاية لها في كتب الأدب لروسي فـي مختلـف عصوره. وكل إنسان في هذه البلاد له تجربة مـع القطـار.

ومقدمة كل العروض كانت عبارة عن لقطات لشارلي شابلن جرى توظيفها بشكل جيد.

غياب النجوم:

ولأن مهرجان هذا العام قد تميز بحالة من الفقر الشديد في حضور نجوم العالم. خاصة أنه يقام وموسـكو تحـاول جاهدة أن تثبت للدنيا كلها. أنها جزء من العالم الجديد. وأنها في حالة تعامل مستمر معه.

ومن أجل مواجهة فقر النجوم، جاء الفـيلم التسـجيلي القصير الذي عرض في ليلة الافتتاح، لكي يذكر النـاس أن هناك نجوما حضروا إلى هذا المهرجان في سنوات سـابقة، التي يقال عنها في أدبيات الكتابة عـن الاتحـاد السـوفييتي سنوات الحياة وراء الستار الحديدي.

وعلى الشاشة، الأسود والأبيض طبعا نشـاهد صـوفيا لورين، واليزابيث تايلور، ومارشيلو مايسترويانتي، حتى رائد الفضاء الشهير: يوري جاجارين، نجد لهم جميعا حضورا في مهرجانات موسكو السابقة التي أقيمت في زمن القطيعة مـع الغرب.

ولكن الغريب أن المهرجان السابع عشر والمقام تحـت شعار مزيد من الاندماج مع الغرب قد شهد كل هذا الفتـور في حضور نجوم سينما اليوم. وباستثناء النجوم المصـريين: عزت العلايلي، صفية العمري، ونجم العنف الهندي: أميتاب باتشان، فلم يكن هناك من الأسماء التي تخطف البصر مـن الجماهير أحد يذكر. وإن كانت صوفيا لورين قد حضرت في اليومين الأخيرين من المهرجان. وقيل إن مادونا اشـترطت لكي تحضر مقابلة جورباتشوف. ولأنـه اعتـذر فهـي لـم تحضر.

وأميتاب باتشان عرض له في المهرجان أحدث أفلامه. ولكن خارج المسابقة الرسمية. ولباتشان ثلاثة أفـلام إنتـاج مشترك بين الهند والاتحاد السوفييتي، وقد قـال فـي حفـل الافتتاح إنه لا يفكر الآن في تقديم فيلم عن اغتيال راجيـف غاندي خاصة أنه عضو نشط في حزب المؤتمر.

إن كان عدم حضور النجوم قد عوضه عـرض فـيلم تسجيلي عن المهرجان. فإن المشكلة الثانية لـم تجـد مـن يعوضها وهي: ضعف مستوى الأفلام المعروضة بشكل عام. تلك كانت ملحوظة الجميع بدون استثناء. ما أكثـر العـادي.

وما أقل الباهر والمثير والتميز، يحدث هذا في زمن تقـدمت فيه فنون السينما تقدما لم يحدث من قبل.

وسعد الدين وهبة. رئيس اتحاد الفنانين العرب. ورئيس الوفد المصري في المهرجان، لديه تفسير لحكايـة مسـتوى الأفلام المعروضة، وهو يرى أن مسـتوى الأفـلام التـي عرضت في مهرجانات هذا العام على مستوى العالم كلـه. كانت ضعيفة عموما. والسبب يعود إلى أنها أنتجـت تحـت ظلال أزمة الخليج الطاحنة، جرى تصويرها والإعداد لهـا. والإنفاق عليها. وحرب الخليج قائمة على قدم وسـاق وقـد أثرت هذه الأزمة بصورة أو بأخرى على كل شيء في عالم اليوم. والسينما جزء من هذا الكل.

وكان هذا واضحا في مهرجانات أقيمت قبل مهرجـان موسكو السينمائي خاصة مهرجان " كان " الفرنسي. وإن كان يتمنى أن تفلت الأفلام التي ستعرض في مهرجـان القـاهرة السينمائي الدولي في ديسمبر القادم من هذه الظاهرة. والأمر المطمئن فعلا أن هذه الأفلام يجري تصويرها فـي بلادهـا الآن بعد أن انحسرت تماما أزمة الخليج وانتهـت ظلالهـا الحزينة.

ولهذا من المتوقع أن تعرض أفلام أفضل في مهرجانات فينسيا والقاهرة وبرلين.

أولاد الكلاب:

كان فيلم الافتتاح سوفيتيا، وعرضه يعكس معنى مهمـا في الاعتزاز بصناعة السينما في البلد صـاحبة المهرجـان. وهو فيلم لم يعرض بعد في بلاد السوفييت ولا حتـى فـي عروض خاصة. وعادة فإن فـيلم الافتتـاح يكـون خـارج المسابقة. لأن مجرد اختياره للعرض في الافتتاح يعكس حالة التكريم له بصورة غير مباشرة. والفيلم من إخراج الممثـل ليونيد فيلانوف. الذي يقوم بالإخراج لأول مرة.

وقصة الفيلم تعود إلى حادثة حقيقية وقعت في هذه البلاد قبل عشر سنوات. أي في زمن بريجنيف وقد جرت الحادثة في مسرح " تاجانكا " للدراما والكوميديا، وفي هذا المسـرح كان يعمل عدد من ألمع نجوم الـدراما فـي طـول الـبلاد وعرضها.

وتبدأ أحداث الفيلم عندما يقوم عـدد مـن المـوظفين والبيروقراطيين والمسئولين في الحزب بمطاردة فناني الفرقة ومنع بعض المسرحيات التي يحاولون تقديمها.

في أرض الواقع، وبعيدا عن الفيلم، فإن مخرج الفرقة، الذي كان ذائع الصيت. يوري لوبيموف حاول إنقاذ الموقف وذلك من خلال رسائل وجهها إلى المكتب السياسي للحـزب الشيوعي السوفييتي ورئيس الحكومة. وأمين عـام الحـزب ولكن هذه الرسائل لم توصله إلى أي نتائج تذكر.

الموقف الحزبي المتعنت من الفرقة كان السـبب فـي امتناع لوبيموف عن العودة إلى الوطن السوفييتي الذي كـان قد تركه في مهمة رسمية في إيطاليا للمشاركة فـي إخـراج واحد من عروضه في مسرح " لاسكالا ".

يقال إن لوبيموف خضع لرغبة زوجته اليهودية وسافر إلى إسرائيل التي استوطنها وحمل هويتها بعد إسقاط الجنسية السوفيتية عنه.

بعد رحيله ظل مسرح " تاجانكا " يتعثر إلى أن عينـت الدولة الفنان المعروف نيكولاي جوينيكـو - وهـو ممثـل معروف - مدير له. وقد حاول جاهدا أن يوفق بين أوامـر

الدولة ورغبات أهل الفن من خلال البحـث عـن الحلـول الوسط.

ثم جاءت مقدمات بروسترويكا جورباتشوف ممـا أدى إلى نجاح الفرقة وخروجها مـن أزمتهـا القديمـة، الفنـان نيكولاي جونينكو يعمل الآن وزير دولة للثقافة وبالتالي فـإن الفيلم نوع من النظرة إلى الوراء ولكن في غضب وتحد.

حدث التباس في عنوان الفيلم. فالبعض تصور أن أولاد الكلاب هم الفنانون الخارجون على القوانين سواء في أسلوب حياتهم اليومية. أو من خلال الرؤى الفنية التـي يحـاولون تقديمها.

ولكن الأغلبية نظرت إلـى أولاد الكـلاب باعتبـارهم ممثلي السلطة الحاكمـة والحـزب. رجـال البيروقراطيـة والدولة. خاصة أن المخرج كان حريصا على أن يقدمهم من خلال إيقاع عسكري أشبه بتجربة جنود النازية والفاشية فـي زمانهما. وكان تعاطف المخرج مع أهل الفن واضحا ومحددا وموقفه ضد رجال الدولة واضحا أيضا.

بعد الافتتاح بدقائق كان تليفزيون موسكو يعرض تقيـيم فيلم الافتتاح بعض نقاد السينما السـوفييت قـالوا إن الفـيلم

تعرض لمشكلات ليست حيوية ولا جوهرية بالنسبة للواقـع السوفييتي الراهن الآن. وأنه يحاول تقليـد بعـض مشـاكل الغرب الآنية، وبالبعض الآخر من النقاد قالوا إنه فيلم جيـد وإن كان لم يحصل على نقطتين من خمس نقاط.

وبعيدا عن خلافات السوفييت المشروعة حول الفيلم فإنه يمثل شيئا متجددا ومدهشا ويعتمد على حركة المجموع بـدلا من البطل الفرد، ويقول في نهايته إنه لا خلاص بالفن وحده أو بالدين وحده، ولكن من خلال الارتباط بقضايا الجماهير.

كلب آخر..

للاتحاد السوفييتي فيلم آخر عـرض داخـل المسـابقة الرسمية وقد شاءت المصادفة أن يكون في اسمه كلمة كلـب أخرى، وإن كان الأمر يبدو مختلفا هذه المرة. وهـو الفـيلم الذي تحول إلى بطل للمهرجان.

الفيلم مأخوذ عن رواية الكاتب القرغيزي المعـروف. والذي يعد الروائي رقم واحد الآن في بلاد السوفييت كلهـا: جينكيز ايتماتوف. والرواية عنوانها طويل: " الكلب الأبلـق الراكض على حافة البحر ".. والرواية عن قبيلة في قرغيزيا

بلاد المؤلف الأصلية. يصل تعدادها إلى أربعة آلاف نسـمة. لهم لغة خاصة وتقاليد منفردة. ونمط حياة لا يمتد إلى ما هو أبعد منهم.

" الكلب الراكض " لا تعد من روايات أيتماتوف الكبيرة فهي لا ترقى إلى مستوى " وداعا يا غولسـاري " والمعلـم الأول، أو جميلة أو شجيرتي في منديل أحمر التي تعد مـن كلاسيكيات الأدب السوفييتي في القرن العشرين. والأقـرب إلى الدقة أنها قصة طويلة.

النص الروائي يقدمه المؤلف من خلال حادث محدد، ألا وهو تعليم الطفل كيرسيك كيفية الصيد في البحـار العاليـة بالقرب من الكلب الأبلق. والكلب الأبلق اسم جبـل تعـيش القبيلة بالقرب منه، والرحلة بالقارب يقوم بها عجوز معمـر هو أورغان ومعه صيادان أحدهما والد الطفل هما: إمـرايين ومتغلون. والنص الروائي يعتمد على الحكي والقص فقـط، وعندما يعود الطفل بمفرده بعد انتحار الثلاثة في البحر بعـد عاصفة رهيبة نكتشف أن هناك ظلال تأثر برواية هيمنجواي المعروفة العجوز والبحر، ولكن هذه المرة يمكـن القـول: " الطفل والبحر ".

الفيلم السينمائي أخرجه مخرج أرميني شاب هو: كرين جيفور كيان. وقد وقع في خطأ التسجيلية دون مبرر، حيـث راح يقدم وقائع الميلاد والجنس والمـوت وإعـداد الطعـام وموقف القبيلة من الخيانة الزوجية. وقد حرص المخـرج ـ كما قال في مؤتمره الصحفي ـ على أن يحضر ممثلون من أبناء المنطقة نفسها بعيدا عن النجوم المعروفين. وأن ينطـق الممثلون بنفس لغة هذه القبيلة، ثم تترجم لغتهم إلى الروسية، ومنها إلى لغات العالم بعد ذلك. حتى يكون صادقا وأمينا في نقل الواقع الذي تتحدث عنه الرواية، بأكبر قدر من الدقة.

كان هناك نص روائي مأخوذ عنه فيلم مثل فرنسا فـي المهرجان، هو " مدام بوفاري " أخرجه كلود شابيرول أحـد مخرجي الموجة الجديدة في السينما الفرنسية أو الموجة التي كانت جديدة، وقد لوحظ التزام المخـرج بـالنص الروائـي وخضوعه التام لرائعة جوستاف فلوبير الشهيرة. لدرجـة أن الفيلم يوشك أن يكون محاولة لإعادة قراءة النص الروائـي كما جاء في الكتاب دون أية إضافة أو محاولة إعادة تفسير. وقد قال المخرج في المؤتمر الصحفي أنـه بسـبب عظمـة الرواية قرر أن يقدمها كما هي دون أية إضافة من عنده.

انسحابات:

ظلال السياسة كانت هناك طوال أيام المهرجان. وحتى قبل أن يبدأ. فقد امتنعت الشركات السينمائية الأمريكية عـن الاشتراك في المهرجان أعلن جاك فلاتنـي رئـيس اتحـاد المنتجين الأمريكيين عدم المشاركة في المهرجان وأن السبب في ذلك إنما يعود إلـى أن المـوزعين السـوفييت قـاموا بالاستيلاء على مجموعة كبيرة من الأفلام الأمريكية الحديثة وطرحوها للعرض والبيع في أسواق الفيديو، دون الرجـوع إلى الجانب الأمريكي من أجل الحصول على حـق عـرض هذه الأفلام.

وكان الأمر قد وصل إلـى الـذروة عنـدما عـرض التليفزيون السوفييتي فيلم "الرقص مع الذئاب" دون الرجـوع لأحد كان الانسحاب الأمريكي مشروطا، بأنه لا مشاركة إلا بعد توقيع اتفاقية أمريكية سوفيتية حول حقول الأفلام المنتجة في الدولتين لدى كل دولة أخرى.

وعبر مفاوضات سريعة سبقت الافتتاح. تم الاتفاق على أن تقوم موسكو بشراء بعض الأفلام من الشركات الأمريكية لعرضها في بلادها.

وهكذا شاركت أمريكا في المهرجان. ولكن بعد الافتتاح بيوم واحد. وقيل إنه كانت هناك نية لأن يكون فيلم الافتتـاح من إنتاج أمريكي كتعبير عن الزمن الجديد في موسكو ولكن هذه الأزمة العارضة جعلت الفيلم الأمريكي " الأبواب يصل متأخرا، وحتى يعرض داخل المسابقة كان لا بـد أن يأخـذ مكان الفيلم الإسرائيلي الذي تم سحبه من المسابقة بعد طبـع البرنامج والإعلان عن ذلك.

والنسخة التي وصلت إلى المهرجان من الفيلم الأمريكي ناطقة باللغة الفرنسية ولا يعرف إن كان هذا مقصودا. حتى تكون واشنطن قد شاركت ولم تشارك في نفـس الوقـت. أم لا؟!

قال لي سعد الدين وهبة رئيس الوفد المصـري حـول حكاية الفيلم الإسرائيلي في المهرجان.

ـ إن الفيلم الإسرائيلي الذي تم سحبه مـن المهرجـان اسمه " مباراة نهائي كأس العالم في أسبانيا. وفـي الطريـق يقابل شخصا لبنانيا كان قد تعرف عليه في لبنـان. خـلال الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، ويتحدثان عن الفـدائيين الفلسطينيين باعتبارهم إرهابيين وكل ما يقال إنما هو ضـد

العرب والفلسطينيين على اعتبار أنهم ليسوا أصحاب قضـية عادلة.

إنها المرة الأولى التي تشارك فيهـا إسـرائيل داخـل المسابقة الرسمية في مهرجـان موسـكو بعـد إجـراءات جورباتشوف.

ولأن الفيلم يتناول مسائل سياسية حساسة ـ من وجهـة نظر السوفييت ـ وأن عرضه يمكن أن يزيـد مـن حملـة الكراهية ضد العرب في بلاد السوفييت. ولأن منع عـرض الفيلم بقرار سوفييت خالص يمكـن أن يحـدث أزمـة فـي العلاقات بين البلدين ومع الغرب عموما. وكل ما يحدث في بلاد السوفييت الآن هدفه الأساسي هو إرضاء الغرب.

لـذلك جـرت مفاوضـات سـرية بـين السـوفييت والإسرائيليين وخلال هذه المفاوضات تم العثور على فقـرة في قانون المهرجان تقول. إن الفيلم الذي يعرض خلالـه. لا يمكن عرضه تجاريا إلا بعد فترة طويلة من الوقـت. ولأن إسرائيل في حاجة إلى عرضه تجاريا في القريب العاجل فقد قررت سحب الفيلم من العرض داخل المسـابقة الرسـمية. وهكذا تم التوصل إلى حل يرضي جميع الأطراف.

مع أن إدارة المهرجان لديها مبدأ شديد الوضـوح فـي قواعد المهرجان تقول إنه لا يجوز أن يعرض في المهرجان أي فيلم يسيء إلى شعب أو دولة أو جماعة في هـذا العـالم وكان يجب على السوفييت منع عرض الفيلم استنادا إلى هذه القاعدة التي تعد من القواعد الأساسية في أي مهرجان للسينما في عالم اليوم. ولكن هذه المبادئ النظرية أمر. واعتبـارات السياسة العملية أمر آخر تماما. وهكذا تم إقناع الإسرائيليين بسحب فيلمهم. لأن مصر مشاركة في داخل المسابقة. ولأن بعض الدول العربية كانت تعرض أفلامهـا فـي بانوراما الأفلام بعيدا عن المسابقة.

سحب الفيلم لا يقلل من أن الوفد الإسرائيلي المشـارك في المهرجان كان من الوفود الكبيرة والتي حظيت بمعاملـة خاصة أيضا، فقد شاركت جنوب أفريقيا في المهرجان، وإن كان ذلك لم يتم بصورة رسمية ولم يعرض لها فـيلم داخـل المسابقة ولكن مجرد عرض مثل هذا الفيلم يعد جديدا تمامـا بالنسبة للموقف الكلاسيكي السوفييتي من الأوضاع في جنوب أفريقيا.

تعاطف مع الصهيونية:

حتى الفيلم الأمريكي " الأبواب " وهـو مـن الأفـلام الغنائية الاستعراضية لا يخلو من بعـض المشـاهد لهتلـر وخطبه في زمن صعوده الأول.

لكن الفيلم القادم من استراليا. أي من أبعد مكان في هذا العالم عنا. كان فيلما مصنوعا مـن أجـل التعـاطف مـع الصهيونية. والفيلم عنوانه: " الأب " وبطله أب على المعاش يعيش بالقرب من ابنته المتزوجة والتي أنجبت من زواجهـا هذا طفلا وطفلة هما كل حياة هذا الأب. الذي يعود تـدريجيا إلى طفولته الخاصة.

وسط تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة يفاجأ الأب بأرملة تدق أبواب حياته وحياة العائلة الصغيرة حاملة معها الـدليل على أن الأب خلال الحرب العالمية الثانية شارك في عمليات الإعدام الجماعي لليهود في أفران الغاز، والدليل عـدد مـن الصور الفوتوغرافية التقطت للأب خلال عمليات الإبادة.

وتبدأ محاكمة الأب. ولكن الابنة تقرر هجرة أبيها بعـد أن تأكدت أنه شارك في علميات الإبادة الجامعيـة لليهـود.

والفيلم لا يقدم أي جديد في هذه الـدراما المعـادة. والتـي شاهدناها من قبل أكثر من مرة. سوى الأداء الجيـد لـدور الأب وكل إنسان ضد إبادة أي إنسان آخر بصرف النظر عن كونه يهوديا أو غير يهودي، وما قام به هتلر جريمة بكـل المقاييس، ولكن استثماره فاق جميع الحدود والاعتبارات.

خصوصا أن هذا لا يقدم من خـلال ربـط الماضـي بالحاضر. أي أنه لا ينظر إلى ما جرى من الحرب العالمية الثانية. مع ما يجري الآن في فلسطين المحتلة.

والفيلم الألماني " ماليريان روبيل " يعزف علـى نفـس النغمة، وهو يقدم صبيا في السابعة عشرة من عمره. يحـاكم في سجون هتلر ويحكم عليه بالإعدام لأنه وهو مـن أصـل بولندي عندما أخذته قوات هتلر النازيـة لكـي يعمـل فـي معسكرات العمل الجماعي ، ولأنه كان يريد العودة إلى أهله فادعى المرض. وعندما رفضوا إعادته إلى والـده ووالدتـه أحرق بعض القش في المعسكر الذي يجبر على العمل فيه.

ورغم أنه قام بإطفاء الحريق بنفسه. إلا أنه استمر يعمل في معسكرات أشد قسوة حتى قدم إلى المحاكمة وجاء الحكم عليه بالإعدام شنقا وينتهي الفيلم والصبي على أبواب غرفـة

الإعدام. بعد منولوج طويل. يتحدث فيه عن أهمية أن يعيش حتى سن الأربعين على الأقل - لأنه في السابعة عشرة من عمره. ولم يعش حياته أبدا.

وقد بكى المشاهدون من شدة التأثر. وهو البكاء الذي لم يحدث سوى مع مشهد النهاية مع الفنان عزت العلايلي في فيلم " المواطن مصري ".

ورغم أن الفيلم لا يجزم إن كان الصبي يهوديا، إلا أن الأداء الجيد والعناية بتفاصيل هذه المرحلة البعيدة من التاريخ الألماني، وملامح وجه الصبي. قد خلق حالة من التعاطف مع الصبي. وحالة البكاء الجماعية في صالة السينما، أنبتت انطباعا أوليا يرقى إلى حدود اليقين أن هذا الصبي جرى له كل ما جرى لأنه يهودي. وهكذا صب الفيلم في نفس هذا الاتجاه المتعاطف مع الصهيونية دون أية تفرقة ما بين اليهودية كدين. والصهيونية كممارسة عنصرية يرفضها العالم كله. أو على الأقل من المفروض أن يكون هذا هو موقفه منها.

الحضور المصري:

تشارك مصر لأول مرة، داخـل المسـابقة الرسـمية للمهرجان وقد شاركت مصر من قبـل ولكـن بعيـدا عـن المسابقة الرسمية سنة ١٩٨٧، شاركت مصر " زوجة رجل مهم " لمحمد خان وسنة ١٩٨٥ شاركت بفـيلم " الزمـار "، وكان الحضور جيدا وكثيفا.

ولكن رغم مشاركة مصر هذا العام داخـل المسـابقة، وكانت المشاركة العربية الوحيدة. إلا أن الحضور المصري كان أقل من السنوات السابقة.

داخل المسابقة كان هناك فيلم " المواطن مصري " الذي تنافس مع أفلام من ٢٢ دولة من معظم دول العالم. أمريكا. فرنسا، استراليا، المجر، أسبانيا. المكسيك. يوغوسلافيا.

وقد سافر مع الفيلم، علاوة على بطليه: مخرجه صلاح أبو سيف. ومنتجه، حسن القللا. وقد تحول عرض الفيلم في اليوم الثاني من أيام المهرجان الأحد عشـر إلـى مظـاهرة عربية في قلب موسكو. كان هناك مندوب جامعـة الـدول العربية في موسكو، وسفير فلسطين ومعظم أبنـاء الجاليـة

العربية والمصرية، إلى جانب جمهـور المهرجـان ولجنـة التحكيم.

خارج المسابقة تم عرض فيلم " سمع هـس ". وتقـرر عرضه في دار سينما كوزموس، أي الفضاء بالروسية، لكن عندما ذهب السفير المصري في موسكو: أحمد ماهر السـيد إلى الدار في وقت عرض الفيلم. وذهب سفير فلسطين الشاب في موسكو نبيل عمرو وعدد كبير من المشاهدين المصريين والعرب فوجئ الجميع بأن الدار تعرض فيلما إسرائيليا بـدلا من المصري.

وبعد الاحتجاج على إدارة المهرجان قيل أن السبب في هذا الخطأ غير المقصود هو الترجمة مـن الروسـية إلـى الإنجليزية لأن فيلم " سمع هس " عرض في نفس الوقت في دار سينما قرغيزيا، وإن كانت هذه الدار ذات مستوى أقـل من السينما الأولى.

ولا يعرف إن كان السبب هو قضـية الترجمـة، أو أن الأمر مقصود. أو أن الحكاية لا تعدو ما هو أبعد من فوضى المهرجان الشاملة، حيـث إنـه مـن الأمـور المؤكـدة أن

المهرجان كان يعاني من حالة فوضى شاملة وعدم التنظـيم سواء في نظام العروض أو ضيافة الوفود أو انتقالاتهم.

والمهرجان نفسه يقام في ظل ظروف صـعبة. فحتـى وقت قريب لم تكن قد تقرر إقامة المهرجان. الذي يقام كـل عامين بالتناوب مع مهرجان كارلوفيفاري. وفي موسكو كان اتحاد السينمائيين قد جرى تغييره والرئيس الجديد يعيش في جمهورية قرغيزيا معظم أوقات السنة.

كان هناك حضور عربي آخـر فـي المهرجـان مـن سوريا، عرض فيلمان أولهما: كفرون، والثـاني الطحالـب سيناريو وإخراج: ريمون بطرس وهو من إنتـاج مؤسسـة السينما السورية، ومن المغرب جاء فيلم سهيل بـن بركـة " قصة ٣ ملوك " والفيلم إنتاج مغربي - روسـي، فرنسـي، أسباني، إيطالي مشترك.

الوفد المصري المشارك في المهرجان وقع عددا مـن الاتفاقيات، أولاها: الاتفاق على تجديد الاتفاقية الموقعة بـين مهرجاني موسكو والقاهرة السينمائيين، بشأن تبادل الوفـود والمعلومات عن الأفلام والاشـتراك فـي اختيـار الأفـلام والاتفاقية كانت سارية لمدة عامين فقط وحققت نتائج إيجابية

كثيرة. وانتهت وتم تجديدها ومع التجديد ينضم إليها مهرجان طشقند السينمائي الذي كان قد توقف فـي الأعـوام الثلاثـة الماضية بسبب الصعوبات العامة التي كانت تواجه الاتحـاد السوفييتي ولكن تقرر عودته ابتداء من أكتوبر ١٩٩٢ وكذلك إضافة مهرجان سينما الطفل المصري إلى الاتفاقية.

* * *

إلغاء الحزب الشيوعي..
ورحيل لينين عن الميدان
الأحمر..!!

حتى الآن لا يزال الاتحاد السـوفييتي مرسـوما علـى الخريطة وما زالت موسكو هي العاصمة الكبرى. ومـا زال هناك شعب يسمى الشعب السوفييتي.

ولكن كل ما عدا ذلك قد تغير من أساسه. ابتـداء مـن السلطة حتى تفاصيل الحياة اليومية. من قبل كانت السـلطة مركزة في اللجنة المركزية للحزب. ولكنها انتقلت منها إلـى رئاسة الدولة ومجلس السوفيات الأعلى. والثلاثة موجودة في مبنى الكرملين نفسه.

ومع هذا فإن القرارات المهمة والمصيرية إنما تتخذ في إحدى ضواحي موسكو السـكنية. وسـط الغابـات الكثيفـة الخضرة، ضاحية: " توفو أوغاريفو ".

حتى المكتب رقم واحد في الكرملين الذي كان يخصص للأمين الأول للجنة المركزية. هذا المكتب تخلى عنه بهـدوء

وبساطة جورباتشوف لبـوريس يلتسـين بعـد فـوزه فـي الانتخابات وقيل إن جورباتشوف له مكاتـب أخـرى بعـدد مناصبه.

فماذا يجري بالتحديد في بلاد السوفييت؟!

منذ اللحظة الأولى تهاجم حواسك، كل علامات التغيير، تغيير يتحدى حتى قدرتك علـى الاسـتيعاب. فـي مطـار موسكو. تحاول إحضار عربة تحمل حقائبك، تفاجأ أن العربة موجودة، ولكن من أجل الحصول عليهـا لا بـد أن تـدفع روبلين في مكتب مختص. وتحصل علـى إيصـال تتسـلم بموجبه عربة. وقبل أن تطل الدهشة من عينيك، يقول لـك من يقف في استقبالك: المهـم إن إيجـار العربـة لا يـدفع بالدولار لأن ذلك هو التغيير القادم، والذي لا بد منه.

تخرج من المطار. تهب على أعصاب عينيـك أحـدث أنواع السيارات الغربية، التي كانت نادرة الوجود من قبـل. والسيارة الروسية الصنع، التـي كانـت مثـارا للاعتـزاز الوطني، لا يستعملها إلى المضطر والذي لا يملـك خيـارا آخر.

وسواء سمعت أو رأيت أو أحسست، فإن كل ما يجري حولك يقول لك أن الأمور تندفع في اتجاه غريـب. أنـه لا توجد قوة على الأرض قادرة على وقف الاندفاع، وإن عجلة التاريخ لن تعود في هذه البلاد إلى الوراء أبدا. مهما حـدث وجرى، وأن البلاد تمر بحالة ركـض باتجـاه الكارثـة أو الخلاص. وإن كانت الكارثة هي المؤكدة.

وأصل المشكلة وجوهرها أن جورباتشوف أعلن سياسة إعادة البناء. وبعدها أطلق حرية الكلام للجميع، ولكـن مـا جرى في الشارع أن كل الناس أقبلت على حرية الكلام بقوة. في حين لم يذهب أحد إلى العمل. بنفس القدر من الحماس...

في بلاد السوفييت الآن الكل يتكلم. مع أنه لا أحد يستمع إلى ما يقال ومن يكتب. وفي كل يوم تصـدر آلاف الكتـب والصحف والمجلات. التي تصدر بكل اللغات. أما عند العمل فلا أحد يعمل. إن الجميع في انتظار معجزة قد يـأتي بهـا جورباتشوف.

ثم إنه حدثت مقارنة ضخمة بين سهولة هدم القديم الذي كان، ولكن عند التفكير في البناء اكتشف الجميـع صـعوبة وربما استحالة بناء الجديد. وحتى بنـاء الجديـد إنمـا يـتم

باستخدام مفردات من الواقع القديم الذي يدينه الجميـع الآن. كل هذا يتم في دولة عبارة عن موزاييـك مـن القوميـات والجنسيات واللهجات. وفي بلاد عاشت سبعين سنة على أنها ند للغرب. واستيقظت ذات صباح وإذا بقادتها يتحدثون عـن ديونها. بل ويطلبون من صندوق النقد الدولي قبـول الدولـة العظمى السابقة عضوا به.

الحزب...

في بلاد السوفييت توقعات كثيرة لما قد يجري في الغد. وهم يقولون إن مؤتمر الحزب الشيوعي السـوفييتي. الـذي سيعقد في نوفمبر القادم سيشهد تغييرات ما كان أحد يجـرؤ على مجرد التنبؤ بها. لأول مرة سيجري تغيير اسمه، سـيتم شطب كلمة الشيوعية من اسمه. وسيصبح الاسم الجديـد: " حزب التوجه الاشتراكي ".

التغيير الذي سـيتم داخـل الحـزب سـيكون باتجـاه الديمقراطية على الطريقة الغربية. أي الديمقراطية السياسية. مع تقليص التوجه الاشتراكي إلـى أقـل درجـة ممكنـة. المتشائمون من أهل الحرس القـديم يقولـون مـن الآن. إن

جورباتشوف إن نجح في تغيير اسم الحزب. سواء بموجـب استفتاء أو بدونه. سيعقب ذلك إخراج لينين من المكان الـذي يرقد فيه. ودفنه. ومن الآن يتم البحث عن وصية يقال أنـه تركها قبل رحيله عن العالم. وفي هذه الوصية يطلب دفنه في المدينة التي تحمل اسمه " لينينجراد " بجوار المكـان الـذي دفنت فيه أمه. ولا يعرف أحد أين كانت هذه الوصية طـوال هذه السنوات؟!.

ولكن لسوء حظ لينين، أنه في الوقت الذي يفكرون فيه بدفنه سيكون للمدينة اسم آخر. هو الاسم القيصري القـديم " بطرسبرج " والحزب الذي يجري الآن الإعداد لتغيير اسـمه فقد في السنوات الثلاث الأخيرة ٤ ملايين عضو. وأصبحت عضويته الآن في نفس العضوية سنة ١٩٧٣. وقبل التغييـر سارع بوريس.. يلتسين وأصدر مرسوما بحظر نشاط الحزب الشيوعي في الدوائر الحكومية في كل أنحاء جمهورية روسيا الاتحادية.

هناك توقعات أن يخرج إلى الوجود ثلاثة أحزاب مـرة واحدة. في الخريف القادم: بقايـا الحـزب الشـيوعي بعـد التعديلات يقودها جورباتشوف، والحزب الذي يؤسسـه الآن

إدوارد شيفرنادزة الذي استقال أخيرا من عضـوية الحـزب الشيوعي ووقع مع مجموعة من الإصلاحيين وثيقة تأسـيس حركة إصلاحات ديمقراطية على أن تتحـول إلـى حـزب سياسي في منتصف سبتمبر القادم.

إن شيفرنادزة يكسر بذلك دائرة الممنوعات في الحزب ويؤسس منذ الثورة البلشفية أول حزب معـارض. وهنـاك حزب ثالث لمجموعات الماركسيين الذين يسمون الآن فـي أدبيات موسكو: الحرس القديم. وهـم الـذين يقفـون ضـد إجراءات جورباتشوف بقوة. وعلى هامش هذه الاتجاهـات الثلاثة ثمة تجمع صغير يطلق على نفسه: أعداء الشـيوعية، والحرس القديم يرى أن التطورات القادمة جـرى الاتفـاق عليها في لقاء جورباتشوف مع السبعة الكبار في لندن. حيث إنه كان مطلوبا في هذا اللقـاء إنهـاء الحـزب الشـيوعي السوفييتي تماما. كأنه لم يكن له وجود من قبـل فـي حيـاة البلاد.

في اليوم الثاني لوجودي في موسكو. ذهبت إلى الميدان الأحمر. حيث ضريح لينين، والطابور الطويل الذي كان يقف في انتظار إلقاء نظرة على لينين تقلص كثيرا. وعندما تقدمت

في هذا الطابور اكتشفت أن الطابور كله لا يوجد فيه أحد من أبناء السوفييت وأن معظم الواقفين سياح أتوا من جميع أنحاء العالم. والفراغات في الطابور أطول من مساحات الناس. وفي داخل الضريح اكتشفت أن المسألة نزعت عنها هالة القداسة القديمة. يمكن للزائر أن يتكلم وربما يضحك وهو في حضرة لينين، حتى الحراس أصابهم شيء من الكسل والفتور وهم يقومون بعملهم.

وقد رفعت صور لينين من كل المكاتب الحكومية والحزب. إلا في بعض الحالات النادرة. ومن يحتفظ بهذه الصورة. يقال عنه رجعي أو أصولي وفوق قباب الكرملين يخفق الآن علم روسيا إلى جانب العلم السوفييت المعروف. وتلك هي بداية ازدواج السلطة في هذه البلاد.

والموقف من اتحاد والجمهوريات ليس متفقا عليه. هناك تسع جمهوريات ما زالت ترغب في البقاء متحدة وفي المقابل ست جمهوريات أخرى ترفض الوحدة السياسية، وتوافق فقط على أي إجراءات اقتصادية أخرى مع الجمهوريات الـ ١٥ التي تشكل البلاد.

والرقابة السوفييتية، لديها تعليمات دائمة. أن كل الأمور مباحة ما عدا قضية وحدة الجمهوريات الـ ١٥. فلا يمكـن الاقتراب من هذا الموضوع لا بالتلميح أو التصـريح أو أي شكل من أشكال المعالجة.

الدولار:

قبل أن يتولى جورباتشوف السلطة في بلاد السـوفييت. كان الروبل الروسي يساوي دولارا أمريكيا ونصف الدولار. الآن أسعار الروبل تبدو على النحو التالي: في البنك الدولار الواحد يساوي سبعة وعشرين روبلا ونصف الروبل. ولكـن في السوق السوداء. والتي تسمى هناك: أسواق الظل. فـإن سعر الدولار يبدأ من واحد وثلاثين روبلا، ويصل إلـى ٣٥ روبلا للدولار الواحد.

وعندما تطلب أية خدمة من أي مواطن سوفييتي يطلب منك في المقابل دولارات، وعندما تقول له إنك لا تملك سوى الروبلات يرفض ذلك. لأن الروبل مجرد أوراق لا قيمة لها. أما الدولار فهو عملة سحرية في موسـكو، وعـلاوة علـى الفارق الضخم. فإن السلع التي توجد فيها أزمة لا تباع سوى

بالدولار. والمطاعم الفاخرة بالدولار والفنادق التي اشـتراها الغرب بالدولار. والتاكسيات الفاخرة بالدولار. وحتى فتيات الليل يرفض التعامل سوى بالدولار فقط.

الأرقام المجردة. تقول عن الوضع الاقتصادي إن الناتج القومي الإجمالي للاتحاد السوفييتي انخفـض بنسـبة ١٠ % خلال الأشهر الستة الأولى من سـنة ١٩٩١، كمـا تقلـص الدخل الوطني بنسبة ١٢ % والإنتاج الصناعي بنسـبة ٦,٨ % وهذه الأرقام المخيفة أعلنها فاديين كيربتشنكو رئيس لجنة الإحصاء السوفييتية.

ونفس الأرقام تقول أن التبادل التجاري انخفض خـلال نفس الفترة بنسبة ٣٧ % وتقلص الاستيراد بمعـدل ٤٢ % وهناك توقع أن يزداد تفاقم الأزمة بسبب عجز الـبلاد عـن زيادة الاستيراد بنسبة من ٥٠ % إلى ١٠٠ % لسد حاجات السوق الداخلية.

ومن المتوقع أن يصل محصول الحبوب ١٩٥ مليـون طن في مقابل ٢١٨ مليون طن في العام الماضي. ويسـبب تدهور الأوضـاع الاقتصـادية وتـدهور العلاقـات بـين الجمهوريات زاد العجز في الموازنة خلال الأشهر الخمسـة

الأولى من هذه السنة إلى ٣٩ بليون روبيل، فيما كان مقدرا له أن يبلغ ٢٦,٧ بليون روبيل طوال السنة. وأكـدت لجنـة الإحصاء أن الديون الداخلية للاتحاد السوفييتي بلغـت ٨٠٠ بليون روبيل في أول يوليو الجاري.

المسئولون السوفييت أبلغوا لقاء الدول السبع الكبرى في لندن أخيرا أن موسكو ستنتهي من سـيطرتها تمامـا علـى الأسعار. بحلول عام ١٩٩٣. وابتداء من هذا العام سـتحدد قوى السوق جميع الأسعار المحلية، وفي عـام ١٩٩١ فـإن قوى السوق الذي تعتمد على العرض والطلب ستحدد أسعار ٤٠ % من السلع، وفي سنة ١٩٩٢ ستحدد قوى السوق بعيدا عن الدولة ٧٠ % من الأسعار. أما في خلال سـنة ١٩٩٣. فإن كل الأسعار في جميع أنحاء البلاد ستحدد تلقائيا.

إن من يتجول في الأسواق سيجد أن المحلات كثيـرة. ولكنها خالية من البضاعة خاصة المواد الغذائيـة. وعنـدما يعرض أي شيء فإنه يختفي في دقائق معدودة، ومن يستولي على هذه البضائع إنما يعيد بيعها مرة أخـرى فـي السـوق السوداء بأسعار باهظة. تصل إلى عشرة أضـعاف سـعرها الأساسي.

في الشوارع أكشاك جديدة. تسمى " تشاركيات " وهـي أقرب إلى القطاع الخاص. وفيها كل شيء ولكن السعر فيها يعتمد على العرض والطلب. وفارق السعر من كشـك إلـى الكشك المجاور له يصل إلى الضعف.

وطوال سيرك في الشارع تجد شبانا يعرضون عليـك تغيير العملة علنا. وهم أقرب إلى العصابات التي تعتمد على المغالطة في العد. وهناك سيدات يقربن من التسـعين مـن العمر يعرضن عليك البضائع التي لا توجد فـي الأسـواق بأسعار خاصة والطوابير التي تمـلأ الشـوارع - ليسـت الطوابير القديمة على الخبز واللحم. ولكن هنـاك طـوابير جديدة على الآيس كريم. والشيكولاتة والسجائر وكل البضائع الغربية. وبالنسبة للزائر. فإن الـدلالات يعرضـن عليـه: الكافيار، السيجار، الفوركا، الفرو، وهي الهدايا التي يرغـب في العودة بها ولكنه لا يجدها وطبعا السعر مرتفع جدا. وفي أغلب الأحيان مطلوب أن يدفع بالدولار.

وللمرة الأولى في تاريخ الاتحـاد السـوفييتي، فتحـت مكاتب البطالة أبوابها. حيث دخل القانون الخـاص بتشـغيل السكان إلى حيز التنفيذ ابتداء من صباح الاثنين الأول مـن

يوليو الحالي. وهذا القانون الذي صدر في أبريل الماضي من برلمان روسيا برئاسة يلتسين. يعترف رسميا بالبطالـة فـي البلاد. حيث لا يزال الحق في الوظيفة مـن الحقـوق التـي يضمنها الدستور.

الخبراء يقولون إن عدد العاطلين عن العمل في كبـرى جمهوريات الاتحاد السوفييتي وهي جمهورية روسيا يتجاوز الستة ملايين شاب، وإن الرقم في كل أنحاء البلاد يصل إلى خمسة عشر مليونا، في حين أنه لا توجد الآن أيـة فـرص حقيقية للعمل. ومن المتوقع عندما يبدأ بيع القطـاع العـام. ومنشآت الدولة. أن هذا الرقم من العاطلين سيتضاعف أكثر من مرة. ومن الآن هناك عمليات تخريب لـبعض وحـدات القطاع العام، حتى تصل إلى طريق مسدود ولا يكون هنـاك من حل سوى بيع هذه الوحدات.

والفندق الذي نزلت فيه هذه المرة من فنـادق الدرجـة الأولى وقد سبق لي النزول فيه. ولكن حالتـه هـذه المـرة ساءت لدرجة وجود صراصير وفئران في الغـرف. ومـن الواضح أن هذا الإهمال جزء من خطة هامة هدفها بيع هذه

المنشآت بأي مبالغ حتى ولو برخص التراب إلـى القطـاع الخاص.

إسرائيل:

بعد إقامتي في الدور الثاني عشر من فندق " راسـيا " بيومين. فوجئت بأن بوفيه الدور قد أغلق، وعندما سألت عن السبب قيل لي.. إن وفدا سياحيا وصل من إسرائيل. والبوفيه سيغلق تماما لاستخدامات هذا الوفد. وعندما سألت عن قواعد استئجار بوفيه يخدم دورا كاملا قيل لي إن هذا قرار سياسي.

ولمدة عشرة أيام كان الوفد الإسـرائيلي المكـون مـن الحاخامات يعقد لقاءات مع يهود موسكو لشرح الحـال فـي إسرائيل وقواعد الهجرة الجديدة. حيث إنـه مطلـوب مـن اليهودي الروسي أن يحتفظ بكل ممتلكاته في بلاد السـوفييت ومع ذلك يهاجر. ذلك أنه سيصبح من حقه العـودة فـي أي وقت يشاء.

أما كون إسرائيل تحرز الكثير من التقدم في موسـكو. فهناك جيش جرار من اليهود يعملون لصالح إسرائيل. ولكن المثير للأمر هو مـا جـرى مـع جمهوريـة أوزبكسـتان

الإسلامية، حيث وجهت إسرائيل الدعوة إلـى رئـيس هـذه الجمهورية لزيارتها وقبل الدعوة فعلا. وسيحدد ميعادها فـي القريب العاجل. وسيتم افتتاح أول خط طيران مباشـر بـين طشقند عاصمة الجمهورية وتل أبيب مباشرة دون المـرور بأية عاصمة أخرى.

وعندما انزعج السفراء العرب في موسكو مـن هـذه الأخبار، أوفدوا إلى الجمهورية مندوب جامعة الدول العربية في موسكو، لمحاولة وقف هذه التطورات الخطيـرة. وفـي عاصمة الجمهورية الإسلامية. قال المسئولون لسفير جامعـة الدول العربية. نحن نشكر إسرائيل. إذ لولا الاتفاق معها مـا فكرتم في زيارتنا والتحدث معنا. وعن الاتفاق مع إسرائيل. قال المسئولون إن أي كلام عن المواقف السياسية المبدئية قد انتهى تماما. الآن لدينا زمن جديد لا تحكمه سوى المصـالح ومن المتوقع أن نستفيد من السياحة الإسرائيلية فـي السـنة الأولى من تنفيذ هذا الاتفاق ستة ملايين دولار. نحـن فـي أمس الحاجة إليها، ولا نقبل بأقل من ٣ ملايـين دولار مـن مشروعات مقابلة من الدول العربية والإسـلامية مجتمعـة.

حتى نعيد النظر في الاتفاق الذي أبرم مـع إسـرائيل. وأي كلام آخر لا يوجد من يرغب في الاستماع إليه.

والنفوذ الإسرائيلي ممتد في هذه البلاد. بوريس يلتسـن أصدر قبل يومين من موعد الانتخابات في روسيا، مرسوما بتحويل المقاطعة اليهودية ذات الحكم الـذاتي إلـى منطقـة اقتصادية حرة. تتحول أمام أنظار المحرومين، إلى جمهورية فاضلة على الأرض.

بل إن هناك الآن احتمالا أن يشـارك إسـرائيلي فـي رحلات الفضاء السوفيتية. وهذا الموضوع نوقش في نـدوة علمية أقيمت في طشقند. والذي طرح الفكرة للنقـاش. هـو ممثل شركة " فوروم " الإسـرائيلية التـي أسسـها يهـود مهاجرون من الاتحاد السوفييتي وحظيت الفكرة بدعم النائب السوفييتي الجنرال فلاديمير جانيكلوف.

هذا وقد قامت شركة فوروم بتوقيع بروتوكول في هـذا الصدد مع مؤسسة أنيرغيا وهي الجهة الرئيسية في الهيئـة الفضائية في الاتحاد السوفييتي.

هناك اقتناع في موسكو بـأن رضـاء الغـرب عـنهم وخاصة أمريكا لا بد أن يمر عبر تل أبيب. وأن إسرائيل هي المدخل الوحيد لأمريكا.

الجرائم:

الفساد هو البطل الأول الآن في البلاد. والقـرار الـذي أصدره جورباتشوف أخيرا بتشكيل لجنة للتحقيق في فضائح بين الفيللات الحكومية إلى عدد من الوزراء وكبـار رجـال الدولة يكشف عن بعض جوانب هذه الفساد.

سنوات البيروسترويكا " إعادة البناء " والجلاسنوسـت " الحديث بصوت عال أو المصارحة شكلت ستارا كثيفا حـول الباحثين عن الثروات. وفضيحة الفيللات الحكوميـة واحـدة منها. فقد بيعت هذه الفيللات بأسـعار مخفضـة تقـل عـن أسعارها في الأسواق حوالي مائة مرة. والذين حصلوا علـى هذه الفيللات كـانوا: رئـيس الـوزراء السـابق نيكـولاي ريشكوف. ووزير الدفاع الحالي: ديمتري يازوف ومستشار الرئيس للشئون العسكرية الماريشال: سيرجي آخروميف.

الخطير في الأمر كله أن هذه التجاوزات كان يمكن أن تؤدي إلى السجن مدى الحياة لمن يقوم بها. لو كان القائم بها شخصا عاديا. ولكن لأن الذي تقوم بها شخصيات كبرى لن يحدث لهم أي شيء على الإطلاق. لدرجة أن الناس تقول: " السلطة في بلادنا لا تخضع لأي قوانين ".

وعام ١٩٨١ صدر قرار سياسي سـري يقضـي بـأن التغذية المجانية والمساكن والسفر إلـى منتجعـات الراحـة والنقل هي امتيازات تشمل إضـافة إلـى عضـو المكتـب السياسي جميع أبنائه وأحفاده بعد وفاته.

وعند رحيل بريجنيف كان هذا القرار يشمل ٢٦٥ مـن أقاربه يحصلون على هذه المزايا غير العادية. وكـل هـذا الفساد أتى معه بجرائم غريبة تحدث في هذه البلاد. لدرجـة أن السير في الليل في المدن الكبرى لم يعد مأمونا أبدا.

وفي مواجهة البؤس المنظم يوجد في بلاد الاشـتراكية مليونيرات يقال عنهم: سمك القرش. ويقال: القطط السـمان. والبشر في هذا الوطن نوعان: بشـر مـن الرمـاد والـثلج والضباب، أتوا إلى هذا العالم من أجل الوقوف في الطوابير. حتى لو كان من أجل رغيف من الخبز، بل إن الشعار هـو:

إن شاهدت طابورا فاحصل على مكان لك فيه. ثم اسأل عما يباع بعد أن تقف.

وفي هذه البلاد بشر آخرون يفطرون صباحا بالكافيار، الذي لا وجود له في هذه البلاد سوى في الأسواق السـوداء وأسعاره لا يقدر عليها سوى المليونيرات فقط، والمليونيرات الجدد يعيشون وراء ضباب من الشك والشائعات والحكايات.

وانتشار الجرائم تطلب من الدولة خطـة لمواجهتهـا، وعشية العطلة الأسبوعية مساء يوم الجمعة من كل أسـبوع، تقوم قوات الشرطة مع القـوات المسـلحة بالانتشـار فـي العاصمة. وقد حدثت حالة من الريبة والشك فور أن بـدأت القوات المسلحة في الانتشار خاصة بعد أحداث يوغوسلافيا.

وفي موسكو جريمة منظمة. لا توجد جريمـة واحـدة فردية الطابع أو التنفيذ. وأخطر الجرائم هي الابتزاز، خاصة ابتزاز المليونيرات الجدد وتتبع أخبارهم من خلال الصـحف والمجلات.

الجرائم الجديدة هي: خطف الأطفال، اغتصاب النساء، استخدام التعذيب بهدف الحصول على المال. ورئـيس أيـة شركة عليه أن يطلب من إحدى العصابات حمايته نظير مبلغ

من المال يدفع كل شهر. وهناك من رفض ذلك وتوجه إلـى الشرطة طالبا حمايته ولكنه ندم بعد ذلك لأن الشرطة لا توفر حماية لأحد أبدا. بل إن الذين كانوا في حماية الشرطة توقفت أعمالهم بعد ذلك.

المليونيرات الجدد يدفعون لأي عصابة من العصـابات من أجل الحماية. وما يدفعه للعصابة أقل ألف مرة من الذي يدفع للدولة خاصة إذا توقفت في فترة معينة عن الدفع فـإن خطر الإبلاغ عن أنشطته التجارية للدولة والحزب وأجهـزة الأمن الأخرى يصبح واردا في أية لحظة.

والعصابات التي تطارد المليونيرات تجـد حالـة مـن التعاطف معها من الناس في الشارع. ففي زاوية ما من ذهن كل فرد فكرة تقول أن كل ثروة تخفي وراءها جريمـة مـا، وهذه الفكرة من بقايا الماركسية القديمة، ولذلك فإنـه حتـى المليونير النظيف يبقى مرفوضـا مـن النـاس خاصـة أن المواطن العادي يجد صعوبة حتى في شراء متطلبات حياتـه العادية ويضطر إلى الاستدانة من أجـل شـراء زوج مـن الأحذية.

إتلاف ممتلكات المليونيرات أصبح من الأمور الشـائعة مثل كسر السيارة أو خدشها أو إحـراق الحديقـة المحيطـة بالفيللا، والقانون السوفييتي لا يعاقب بشدة على إتلاف هـذه الأشياء ما دام أن الإتلاف لم يقترن بعمليات عنف، في حين أن إتلاف ممتلكات الدولة تصل عقوبته إلى الإعدام في كـل الأحيان سواء أكان هناك عنف أم لم يكن.

وفي دهاليز موسكو أنباء عن تشكيل قوات انتشار سريع تضم ٢٥٠ ألف شخص وهي تابعة لوزارتي الداخلية والدفاع وجهاز المخابرات. وتتلقى أوامرها من القيادات السياسية.

وخطط استخدام هذه القوات توضع بالتنسيق مع اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي. ومن مهماتها الأساسـية حمايـة مباني الحزب ومقرات الحكومة والبرلمان.

هذه القوات محاطة بستار من الكتمان الشديد. مما يجعل من الصعب تحديد الجهات التـي تتـولى المسـئولية عـن تصرفاتها وهي تضم شبانا بين ١٨ ، ٢٣ سنة ينحدرون من أصول روسية وأوكرانية ، والغالبية العظمى منهم من سكان الأرياف والمدن الصغيرة. ويقودهم ضباط سبق أن شـاركوا في عمليات أفغانستان الحربية.

وهناك مخاوف الآن من أن تتعرض مصـالح الاتحـاد السوفييتي في الداخل والخارج إلى التخريب. خاصة بعد أن تطابقت مواقفه مع أمريكا والغرب ابتداء من أزمة الخلـيج. وعلاقاته مع إسرائيل التي تتنامى بسرعة غير عادية.؟

وفي موسكو يعيدون النظر في قواميس الكلمات. فمـا كانوا يعتبرونه حتى الأمس القريب حركات تحرير. بدأ ينظر إليه الآن على أنه إرهاب دولي لا بد من التصدي له.

وعلاوة على ذلك. هناك قوات جديدة لم يعرفها الواقـع من قبل تسمى " أومون " والاسم اختصار لعبارة المليشـيات الخاصة. وقد استخدمت هذه القوات لأول مرة سـنة ١٩٨٨ وذلك بعد انتشار جرائم من نوع جديد علـى الـبلاد. مثـل احتجاز الرهائن، والإرهاب والسطو المسلح والقتل الجماعي والمسيرات والمظاهرات غير المصرح بها من قبل.

وهذه القوات تشبه الأمن المركزي في مصر ولا يزيـد عمر من يعمل على ٣٠ سنة إن كان جنديا و ٤٠ سـنة إن كان ضابطًا. ولا تشترط العضوية الحزبية من أجل الترقـي أبدا.

وأي فرد في هذه القوات يصدر الأوامر لنفسـه ذاتيـا ويواجه أي موقف ويتصرف بسرعة دون انتظار لتعليمـات من أحد. لقد أصبحت هذه القوات خطيرة وخطرهـا يـزداد يوما بعد يوم، وقد يصل خطرها إلى ما هو أبعد من خطـر العصابات التي وجدت لكي تحاربها.

ويوجد حوالي ١٠ آلاف فرد في هذه القوات وإن كـان الهدف الرئيسي لها هو الجمهوريات التي تريد الانفصال عن الاتحاد السوفييتي.

المقاومة...

مجمل أبناء الشعب السـوفييتي يطالـب جورباتشـوف بالمزيد من الإسراع باعتبار أن في الأفق خصما غريبا يمكن أن يصلوا إليه ذات يوم. ومنذ أن بدأت المسيرة كان حـول جورباتشوف عدد من المثقفين. أهمهم جنكيـز ايتمتـاتوف. وفالنتين راسبوتين.

مثقفة سوفيتية قالت لي إن في البلاد الآن ثلاثة اتحادات كتاب: اتحاد كتاب مركزي للاتحاد السوفييتي. واتحاد كتاب

جمهورية روسيا. والاتحاد الذي أسسه يفتشنكو. أخيرا. إنهـا حالة من الانقسام الحاد التي يمكن أن يحدث فيها أي شيء.

والكتب الرائجة الآن هـي كتـب الجريمـة والجـنس والمغامرات. والصحف والمجلات التي يرتفع توزيعها هـي التي تهتم بالفضائح الشخصية. بل إن هنـاك كتبـا تؤلـف خصيصا من أجل متابعة هذا الجو الجديد.

ويحاول الجميع الدخول على الخط. وأن يحصل علـى جزء من التورتة السوفيتية، فجامعة باريس تؤسس الآن فرعا لها في موسكو. وقد تم افتتاح الجامعة الجديدة والتي اسـمها جامعة باريس في منتصف يوليو الحالي وعين عميـدا لـه الكاتب الفرنسي: مارك أليتر.

وكان قد وقع اتفاق مبدئي بـين الـدولتين فـي مـايو الماضي. خلال زيارة الرئيس ميتران إلى موسـكو وإنشـاء هذه الجامعة كان عبارة عن فكرة عبر عنها العالم السوفييتي " أندريه زاخاروف ".

ونشاط هذه الجامعة سيركز على العلوم الإنسانية فقـط على أن تفتح أبوابها رسميا في سبتمبر القادم، وقد بلغ عـدد

الطلاب المسجلين ٦٢٢ طالبا مع أن المقاعد فيها ٦٠٠ مقعد فقط.

هناك حركة مقاومة في داخل البلاد تتركز أساسا في المثقفين والمفكرين والكتاب، والقيادات الحزبية للحزب الشيوعي. وفي ظل الوضع الجديد يمكن في أي نقاش أن يتم وصف جورباتشوف بالخيانة العظمى، مع التنبؤ بأن البلد ذاته سيفيق صباحا على " بوم " مخيفة. أي على كارثة كبرى.

خلال وجودي في موسكو وجه جناح الحزب في موسكو نقدا لاذعا لمسار جورباتشوف وسياساته، وقالوا إن ما ينفذه ليس سياسة الحزب ولكنها سياسات تتم باسم الحزب، فهناك مجموعات صغيرة من السياسيين تنفذ القرارات بدون الرجوع إلى الشعب.

هناك انتقاد حاد مع مرارة لآليات نقل المجتمع الغربي إلى البلاد بدون أن يتسم ذلك بالتروي والتبصر، إن مثل هذه الإصلاحات ستؤدي إلى انقسام شديد في المجتمع السوفييتي.

وبعد أسبوعين في موسكو أقول: إن التغيير كان لا بد منه. ولكن دون أن يكون هذا التغيير بتقليد التجربة الغربية

من الألف إلى الياء. إن ما جرى يجعل من الاتحاد السوفييتي وطن الاشتراكية الأول. ويجعل منه في نفس الوقت وطنهـا الأخير، وكل هذا جرى على مدى سبعين سنة، مصيره الآن إلى الزوال. هل كان مجرد تجربة؟!

فهل هذا معقول..؟!

وجوه من بلاد السوفييت

١ ـ أم

الأم في كل مكان من الدنيا واحدة، يشـع منهـا دفء وحنان يتحولان إلى وسادة يريح الإنسـان المتعـب رأسـه عليها، عندما يكون الإنسان على سفر، يزداد إحساسه بكل ما هو إنساني، يتصرف باعتباره فقد جذوره، أرضه، وأنه معلق في الهواء.

التي شاهدتها في المصعد لا بد أن تكون أما، لها أبنـاء في مكان، الجو أقرب إلى الحرارة ومع هذا فـإن الملابـس فوقها طبقات، إنسان أخرى تكبس على أنفاسها، ولكنها مـن الملابس هذه المرة، يبدو أنها لا تعرف أن صـيف موسـكو حقيقة مؤكدة وأن ثلوج الشتاء ذابت منذ فتـرة وأن شـمس موسكو ساطعة الآن.

عندما حاولت أن تضحك شعرت أن وجهها يوشـك أن يتكسر إلى ألف قطعة صغيرة، ما أبعد الفرح عـن حياتهـا، وجهها قطعة من الكآبة الإنسانية، فوقه بصـمات الاحتجـاج والعوز وعدم الشبع حتى من الأيام والليالي نفسها.

في اليدين رعشة لا إرادية تشي بمدى تقدم العمر. فـي يدها كيس كبير لا أعرف كيف تحمله وهي لا تعرف من كل اللغات سوى الروسية، ولذلك تتفاهم مع الغرباء، الذين هـم نحن بالإشارات فقط.

فتحت الشنطة المستطيلة التي هي أقرب إلـى الجـوال وجعلتني أنظر في محتوياتها؛ سـيجار وكافيـار وشـامبانيا روسية الصنع، أشياء يبحث عنها المسافر إلى هـذه الـبلاد، وتحتها فرو، إنها الهدايا التقليدية التي كان يعـود بهـا إلـى الأصدقاء والصديقات، وهي كلها لا وجود لها في المحلات، فكل المحلات عبارة عن أرفف فارغة تماما.

نبتت في الذهن كلمة واحدة " دلالة " في بلادنا ـ ونحن من العالم الثالث والحمد لله من قبل ومن بعـد ـ الكثيـرات منهن يقفن أمام مجمع استهلاكي، يـبعن السـكر والشـاي والزيت والأرز، بسعر آخر غير السعر الذي تباع به هـذه الأشياء. فضلا عن عدم وجودها في تلك المجمعات.

ثمة فارق وحيد، أن " الدلالة " في بلادنا تبيع أشياء من ضروريات الحياة اليومية، وهذه تبيع سلع الرفاهية لنا، لسبب

بسيط أن السكر والزيت والأزر لا وجود لها أصلا في هـذه البلاد.. سواء في المحلات أو مع الدلالات.

كانت تمسك بعلبة الكافيار، ثم تحدد السـعر بحركـات يديها ثم تعرض السيجار وهكذا، أما الفرو فقـد كـان مـن الصعب عليها أن تصل إلى حساب الرقم، كان يتعدى الآلاف ولها عشرة أصابع في اليدين فقط، لو كانت معي آلة حاسـبة إلكترونية لقدمتها لها على سبيل الهدية. كانت تريد أن تبيع، وكانت متعبة، أوشكت على الوقوع أكثر من مرة، تبدو غير معتادة على استعمال المصعد، تخاف منه وتخشاه، وعنـدما تعبر عن الخوف. تبدو في وجهها كل طيبة هذا العالم.

مددت يدي إلى جيبي، أخرجت لها كل ما كـان فيـه، وعندما حاولت أن تقدم لي مما تبيعه، اعتذرت ومشيت وهي تنادي علي.

وفي وسط هذا العالم القاسي، الذي لا يرحم، لا بد أنهـا قالت عني مجنون، نظرت إليها باعتبارها أمـا، لـم تجـد المجتمع الذي يكفل لها شيخوخة مقبولة، ولكنها لم تستطع أن ترى في صورة ابنها، الذي لا أعرف إن كان موجودا أم لا.

٢ ـ مراهقة

إن إنسانية الإنسان هي الضحية الأولى لكل ما يجـري هناك.

هذه الفتاة يمكن للإنسان أن يحبها، أن يـربط مصـيره بمصيرها، من الآن وحتى آخر لحظة في الحياة. لـم تتعـد السادسة عشرة بعد، شكلها الخارجي يقول أنها مراهقة، كان من المفروض أن تكون في سريرها الآن، وحولهـا أسـرة توفر لها كل أشكال الرعاية المطلوبة لمن في سنها.

لكنها والوقت يقترب من منتصف الليل، هائمة في الدور الثاني عشر بأحد فنادق الدرجة الأولى في موسكو، تبحـث عن رجل، يدفع لها بالدولار، وإن لم تجد هذا الرجـل، فـلا مانع من دعوة على كأس في أحد المشارب المتناثرة في هذه الأدوار.

وهذا ما حدث معي.

فيها كل ملامح الجمال الروسي القديم، تبـدو وكأنهـا خارجة لتوها من صفحات إحدى روايـات تولسـتوي، أنـا كارنينا ليست أجمل منها أبدا، العود الطويـل، مثـل شـجر

السرو في ريف بلادي، عيدان أيام الرخـاء التـي ولـت، والشعر الذي في اصفرار حقـول القمـح وقـت الحصـاد، وصفاره قريب إلى البياض وشعرها مربوط على شكل ذيـل حصان، يذكرك على الفور بمراهقات عبد الحليم حافظ فـي مصر، والعيون في خضرة البرسيم وقت الربيع.

قالت إنها طالبة في الجامعة. وحيدة أبويها، والدها أستاذ جامعي وأمها مهندسة، يذهبان يومي السبت والأحد من كـل أسبوع إلى داتشا، استراحة في ضـواحي موسـكو، وهـي تحضر إلى هنا، كل واحدة، تأتي إلى هنا وتجرب حظها في الليالي المتعبة في أحضان الرجال الغرباء، لا بد أن لها قصة ما وهذه القصة لا بد أن تكون مؤثرة، هكذا هن جميعا.

لا مانع لديها من قضاء الليل هنا والانصراف في صباح اليوم التالي أفضل ويمكنها الذهاب إلى بيتها مع من يشـاء، تجري وراء حلم البحث عن اللبـان والمـارلبورو والجنـز والويسكي، كل هذه الأشياء الجميلة، لا يمكن شراؤها سـوى بالدولار، وإن وجدت لا توجد سوى مع السياح الـذين هـم سكان هذه الفنادق، سقف أحلامها يصل إلى حدود الارتبـاط مع أحد هؤلاء الرجال والسفر معه والهروب من هذه الـبلاد

التي ما زال الخروج منها إلى العالم الخارجي، هو معجـزة المعجزات، والزواج من أجنبي هو قمـة هـذه المعجـزات جميعا.

هي شابة والشباب نوع خاص من أنواع الجمال، تبـدأ بطلب مائتي دولار من الزبون، ويستمر الفصال حسب قانون العرض والطلب، وإن كانت ليلة خالية من الرجال ممكن أن تقبل حتى بعشرة دولارات.

المهم عندها. أنها ترتدي حذاء من نوع خاص يمكنهـا أن تفك كعبه العالي وتضع الدولارات تحت الكعب، ذلك أنها عند الخروج من الفندق يتم تفتيشها تفتيشا ذاتيا بحثـا عـن الدولارات، ليس مهما أية عملات أخرى، شعار الجميع فتش عن الدولار، وإن وجدت الدولارات فإن الشعار معـروف.. من حضر القسمة لا بد وأن يأخذ نصيبه، وهم أكثر من الهم على القلب. مشرفة الدور، حارس البـاب، مسـئول الأمـن بالفندق، حتى سائق التاكسي الذي يوصلها إلى البيت لا بد أن يحصل على نصيبه أيضا من الدولارات.

أقصى أمانيها أن تجد كل ليلة زبونا واحدا من الرجـال الأغنياء المتقدمين في العمر، الذين يدفعون ببساطة وبـدون فصال ودون أن يسبب لها أي متاعب، ولكن أين هو؟!

وفي الفترة الأخيرة بـدأ الشـبان المرضـى بالشـذوذ يزاحمونها في العمل، أما أحلام الاستقرار والزواج وتكـوين أسرة فلم يعد لها وجود في خيالها، إنها تعيش حياتها بالتقسيط ليلة بليلة، ويوما بيوم، هذا في أيام الرخاء، ولكن في زمـن الشدة ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، قالت لي إنها عندما احتفلت بعيد ميلادها السادس عشر، قالت لها أمها كل سـنة وأنـت طيبة، فقالت لها قولي كل ثانية وأنت طيبة.

٣ ـ جنرال

كان صدره غابة من النياشين والأنواط، ذكرني منظره بصورة بريجنيف عندما كنا لا نرى في الصور سوى هـذه الأوسمة التي كان مجرد حملها يتعبه فـي سـنوات عمـره الأخيرة، كان من الواضح أنه ضابط كبير لأنه تعدى السبعين من العمر، ومعذرة فأنا لا أعرف الرتب ولا الشـارات فـي الجيش السوفييتي الذي كنا نقول عنه منذ سـنوات الطفولـة الجيش الأحمر، والذي كنا نعتبـره جيشـنا الـذي يحـارب معاركنا.

قدم حلته العسكرية التي كانت مرقعة في بعض أماكنها، جعلني أخمن أنه ربما كان جنرالا على المعاش، ينزل فـي هذا الفندق كنوع من التكريم له. تصورت أنه إنسان مزدحم بذكريات معارك الأمس، وأن وراءه جبالا من الحكايات وأن كتفيه يوشكان أن ينوءا تحت ثقل الأمجاد العسكرية.

نظرت إليه فسعد. اقترب مني فتمنيت أن يعرف لسـانه لغة أخرى غير الروسية حتى نتكلم، خيل إلي أنه كان عندنا في مصر وأنه شاركنا النضال العادل، الذي تحاول موسـكو

أن ننساه هذه الأيام، تصورت وهو يقترب مني أن له زوجة من المنصورة أحبها وارتبط بها أيام قواعد الصواريخ، سـام ٦، أيام المجد والعمل المشترك والمصير الواحد.

ألقى علي تحية الصباح بالإنجليزية، وقبـل أي حـديث عن الذي مضى فاجأني بآخر سؤال يخطر على بالي في مثل هذا الموقف، سألني إن كنت أرغـب فـي تغييـر العملـة، تصورته سيقول إنه دخل ألمانيا مع طلائع الجيش الأحمـر وهزم هتلر، وأنه كان في خليج الخنازير، وأنه ذهـب إلـى كوبا وأنجولا كنت أتصور كل هذا، فإذا به يأتي إلي بحثا عن الدولار الذي قضى عمره كله في محاربته في جميع جبهات القتال.

دخلت معه اللعبة، قلت لأمشي الطريق حتى نهايته، كان السعر الذي يحاصرنا هو ٣١ روبلاً لكل دولار واحد، ولكن الرجل قال ٣٥ روبلا للدولار، أي أن هناك أربعة روبـلات فرقًا، لم تكن لدي رغبة في التبديل والتغيير ولكـن اللعبـة استهوتني.

كان معي طالب مصري يدرس الإخراج السينمائي في موسكو قال للجنرال، إننا موافقون والجنرال قال هيا ومشـى

أمامنا إلى المصعد، خلق الجنرال لكي يقود الآخرين، وهـا هو يجري أمامنا سعيا إلى موقعة الدولار.

اصطحبنا الرجل إلى غرفة في الفندق، أجرها من أجل أن يقوم بعمله الغريب فيها، كنت أرغب في أن أجـره إلـى الحديث، ماذا أوصله إلى هنا بالضبط؟ وهو كان يسأل عـن المبلغ الذي أريد تغييره، هل هو مائة دولار وهل هو ورقـة واحدة؟ أم فكة؟ هو لا يقبل إلا الورق الكبير أبدا خاصة أنـه سيعطيني روبلات صحيحة غير مضروبة مثل تلك التي تملأ الأسواق الآن، إنه جنرال قال هذا وأشـار إلـى النياشـين والأنواط، وأكمل والجنرال لا يمكن أن يكون نصابا.

فعلا إنه الجنرال دولار.

أما الغرفة فقد كانت ميدان حرب، هناك عدد من الشبان رأيتهم من قبل أكثر من مرة في الفندق، معهم الأموال علـى شكل حزم كبيرة ومعهم زبائن آخرون، سألت نفسي: وهـل هؤلاء جنود عنده في الوحدة؟

كان في الغرفة غيمة من همهمات عملية العـد، وكـل صبي مع زبون في ركن من الغرفة، وكانت كـل الأركـان

مشغولة، وعندما لم يجد الجنرال سوى دورة الميـاه أضـاء نورها كي نحولها إلى غرفة لعد الدولارات.

وكانت فرصتنا حتى نعتذر على أمل الحضـور مـرة أخرى.

دون الجنرال رقم الغرفة والطابق في ورقة أعطاها لنا. رفع يده لنا بعلامة النصر ونحن ننصرف.

وسألت نفسي: أي انتصار يا حضرة الجنرال..!

العشاء الأخير في موسكو

كنت في موسكو قبل الانقلاب الأخير، والانقلاب علـى الانقلاب بأيام، عدت من هناك وكتبت، عدت وقلت لكل من يسألني، إن بلاد السوفييت ستصحو ذات صباح على بـوم " ضخمة " قد تهز كل أرجاء الدنيا، بمـن فيهـا ومـا فيهـا، وغيري أيضا قال هذا بصورة أخرى، بل إن الحـديث عـن الانقلاب العسكري المتوقع سمعته أكثر من مرة في موسكو، وربما حدث هذا الانقلاب أكثر من مرة، قبل أن يجري فـي أرض الواقع من خلال حكايات الناس عنه، وتوقع حدوثه.

قبل العودة من موسكو، وفي ليلتي الأخيرة فيها التقيـت بعدد من الأصدقاء المستشرقين السوفييت، الذين قضوا بعضا من أزهى سنوات العمر الجميلة في العواصم العربية، وكان سؤالي محددا حول موقـف أو مواقـف جماعـة المثقفـين السوفييت من هذا الذي يجري في البلاد، كان سـؤالي عـن المواقف الحقيقية والفعلية وليس المواقف المعلنة، باعتبار أن هذا المعلن قد لا يعبر عن الموقف الحقيقي، سألت، من هـم القريبون من عقل ميخائيل جورباتشوف كنت قد سمعت قبل هذه السهرة كلاما بالتحديد. سمعته في القاهرة. قبـل السـفر

إلى موسكو في رحلتي الرابعة والأخيرة. سمعت أن الكاتـب الفلاني هو الذي يكتب له خطبه، وأن الكاتب العلانـي هـو الذي قام بتدوين الصياغة الأخيرة من كتاب البروسـترويكا، ومع هذا، ولأنني أعيش في مدينة من مدن العـالم الثالـث، متخمة بالشائعات والأقاويل والحكايات، التي ربما كانت بعيدة في معظمها عن الحقيقة، كنت لهذا أرغب فـي توثيـق مـا سمعته، أو نفيه أو الإضافة إليه أو تعديله.

قيل لي، والعهدة على الرواة:

ـ إنه من الصعب الحديث عن موقف واحـد لجماعـة المثقفين في بلاد السوفييت الآن، ذلك كان قائما من قبل حيث كان الجميع يتبنى موقف الدولة والحزب ويجعلـه موقفـه، وحتى إن عارض البعض الذي يجري، فإن هذه المعارضـة تظل سرية وإن خرجت إلى العلن بصورة أو بأخرى يصبح هذا المثقف منشقا، وعليه الرحيل إلى الغرب لكي يعيش فيه ما بقي له من سنوات العمر.

كل هذا كان في الماضي واستمر حتى زمن بريجنيف، أما الآن فالموقف يبدو شديد الاختلاف، هناك مجموعة مـن المثقفين يقفون مع جورباتشوف، ومثلما يحدث في كل زمان

ومكان في علاقة المثقف بالجالس على كرسي الحكم، هنـاك مجموعة تقف ضده، بالتحديد ضد الإصلاحات التي جاء بها، وبتحديد أكثر ضد بعض النتائج التي خرجـت مـن تحـت معطف هذه الإصلاحات وإن كان الذين وقفوا معه، والـذين تخندقوا تحت كلمة لا. لكل منهم حسبته الخاصة أو العامة.

ومع هذا يجمع بين أبناء " نعـم " أنهـم مـن رجـال جورباتشوف المثقفين، ويجمع أيضا بين أنصار " لا " أنهـم من أهل بريجنيف، وهؤلاء الذين ارتبطوا بحلم الدولة الكبرى القديمة، وبعضهم كامن جزءا مـن آلـة تعـاون الاتحـاد السوفييتي مع العالم الثالث، وهؤلاء رأوا بلادهم تعيش على الكفاف في كل شيء، لكن حلم العدالة التامـة فـي توزيـع الأعباء والكفاف وأحيانا الفقر أرضاهم كثيرا، والبعض منهم قال: ربما كان الغد أفضل، والبعض الآخر كان أكثر واقعية، فكتب: ربما كان بعد غد أفضل.

لكن هناك فارقا جوهريا بين هؤلاء وأولئـك، رجـال بريجنيف عاشوا على المبادئ والأفكار والعقائد، واعتقـدوا أنها وحدها قادرة على تحريك الواقع وتغييـره، أمـا أهـل جورباتشوف فقد نفضوا أياديهم من حكاية العقائد، ويحاولون

إرساء قوانين زمن جديد، فيه نهاية لعقائد ولأفكار، وبداية فترة تحركها المصالح، أي أنهم حاولوا التخلص من قداسة الماضي وبتر الخيال الإنساني، الذي تنبت فيه الأفكار أولا.

المثقفون اليهود في بلاد السوفييت نوعان، نوع معلن ومعروف، وآخر مستتر، والمستترون هم الذين حملوا أسماء روسية، وأخفوا حقيقتهم عن الجميع، والمعلنون لم يعلنوا عن أنفسهم سوى في زمن جورباتشوف فقط، والذي أعلنوا عنه، صهيونيتهم وليس يهوديتهم فقط، وهؤلاء وأولئك وقفوا بدون حدود مع جورباتشوف وإلى آخر مدى ممكن.

سألت عن سكان العلالي، عن المثقفين القريبين من دائرة صنع القرار عن أفواه المثقفين التي هي أقرب الأفواه إلى أذن الرئيس، وعن الأعين التي تراه، لأن هؤلاء من المفروض أن يشكلوا صمام أمان للبلاد، أن يصنعوا ضميرا واقيا حول الرجل، الذي قد يصيب وقد يخطئ.

وهنا قيل لي الآتي:

منذ البداية وحتى الأسابيع الأخيرة كان الموقف هكذا: اقترب الشاعر رسول حمزاتوف لفترة من الوقت، وكانت له شقة فاخرة في شارع جوركي وهو من أهم شوارع موسكو

(اسم هذا الشارع قد تغير فيما بعد) ثم ابتعـد أو أبعـد الله أعلم، هو الآن لا علاقة له بما يجري أبدا، إنه في أبعد نقطة عن الرجل، ولا يقترب أبدا من أية نقطة أو دائرة من النقاط أو الدوائر المحيطة به.

الروائي القرغيزي جنكيز أيتمـاتوف (مولـود سـنة ١٩٢٨ ومن أعماله المعروفة والمترجمة إلى العربية جميلة، المعلم الأول، وداعا يا غولساري، شـجيرتي فـي منـديل أحمر) كان أيتماتوف رئيسـا لاتحـاد كتـاب قرغيزيـا، الجمهورية التي ينتمي إليها، وهـو اتحـاد كتـاب صـغير وإمكانياته محدودة.

أيتماتوف أصبح بعد ذلك عضوا في مجلـس الرئاسـة السوفييتية، أعلى هيئة في الـبلاد، وكـان يكتـب خطـب جورباتشوف علانية، بمعنى أن هذا كان معروفا وشعر بـه الجميع، لأنه كان يستدعى قبل إلقاء أي خطاب بفترة طويلة، ويذهب إليه مسئولون كبار بـأوراق ومعلومـات وبيانـات سرعان ما تظهر في الخطاب الذي يلقيه الرئيس بعـد ذلـك فضلا عن أن الأسلوب هو الرجل.

يقولون أن أيتماتوف في هذه المرحلة كان يحيا وإحدى عينيه على الرئيس والأخرى مفنجلة علـى آخرهـا، علـى جائزة نوبل للآداب، كان يقول لمن حوله، في السابق كانـت جائزة نوبل لا تمنح إلا لمن ينشـق، الآن انشـق الاتحـاد السوفييتي كله عن الشيوعية، فلا بد أن تأتي لموسكو بعد أن أصبحت غربية.

الثابت والمؤكد عن أيتماتوف أنه عندما أعلن منذ أربع سنوات عن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، وكان أيتماتوف في ذلك اليوم في الداتشا الخاصة به، وهي الاستراحة التي لا تمنح سوى لعلية القوم في ضواحي موسـكو، وكـان معـه أصدقاؤه في انتظار النبأ السعيد، وما إن أعلن عن النبأ حتى أصابت، أيتماتوف لوثة من الجنون، فجـرى إلـى سـيارته الواقفة أمام الداتشا وأفرغ البنزين من خزان وقودها، وأشعل به النار في الداتشا.

قيل له في العام التالي، إنه لا بد له وأن يزور إسرائيل لأن نوبل تمر عبر تل أبيب، وهذه الزيارة إن تمت سـتكون اللمسة الأخيرة قبل وصول نوبل إليه، وفي نفس الوقت الذي كان مدعوا فيه لزيارة القاهرة لكي يتسلم جائزة لوتس، جائزة

اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا وقدرها ثلاثة آلاف دولار، ويقدمها الاتحاد السوفييتي، قرر هو السفر إلى تل أبيـب بـدلا مـن القاهرة، وعندما قابل رئيس الدولة العبرية، أهداه نسخة مـن أحدث رواياته الصادرة في موسكو " النطع " وعندما سـئل في موسكو بعد عودته عن حكاية إهداء الرواية ـ قال إنـه نسي إن كان قد فعل ذلك بالتحديد، ولكنه مـن المعتـاد أن يهدي المؤلف نسخا من رواياته لمن يقابلونه.

على الرغم من مواقفه القديمـة، مواقـف السـتينيات والسبعينيات المؤيدة للحق الفلسطيني في مواجهـة العـدوان الإسرائيلي الصهيوني، إلا أن أتيماتوف أعلن خـلال هـذه الزيارة وقوفه مع إسرائيل، ضد أعدائها الذين هـم العـرب طبعا وفي القاهرة، قال سفير الاتحاد السوفييتي، وهو يعتذر عن عدم حضور أيتماتوف لكي يتسلم الجـائزة، بنفسـه إن الرئيس جورباتشوف استدعاه في آخر لحظة لكي يكتب لـه خطابا سياسيا طارئا ومفاجئا.

قبل الانقلاب الأخير، والانقلاب على الانقلاب ببضـعة أشهر، طلب أيتمانتوف من صديقه جورباتشـوف أن يعينـه سفيرا للاتحاد السوفييتي في لوكسمبرج، وقد كـان وعـين

وسافر وتسلم عمله هناك. وقال بعض المثقفين السوفييت أن هناك أكثر من سبب وراء طلب أيتماتوف المفـاجئ، الأول: أن مجلس الرئاسة السوفييتي الذي هو عضو فيه كان علـى وشك أن يحل وأن يلغى تماما.

والثاني: أن يكون أيتماتوف بالقرب من حلمـه القـديم، أقصد جائزة نوبل.

الذي لم يقله أحد، يعود إلى سيكولوجية الهـروب مـن السفينة قبل أن تغرق والإمبراطورية قبل أن تصبح ذكـرى، وأن هذا الإحساس هو الذي سيطر على الجميع فـي الفتـرة الأخيرة.

يبقى فالنتين راسبوتين.

وهو روائي مهم جدا على الخريطة الأدبية السـوفيتية، وهو إن كان يحمل اسم الطاغية القيصري القديم فهو علـى العكس منه تماما في كل شيء.

ولأنه غير معروف على نطاق كبير في وطننا العربـي أقول إنه مولود سنة ١٩٢٧ في قرية أوسـت أودا بمقاطعـة أبركوتسك في سيبريا، المنفي التقليدي لكل الثوار في روسيا القيصرية. قضى طفولته فيهـا وتخـرج فـي كليـة الآداب

والتاريخ هناك.. نتاجاته الأدبية عبارة عن روايات وقصص.. منها: نقود لماريا ـ المهلة الأخيرة ـ الهارب ـ والحريق ومعظم هذه الأعمال ترجمت إلى العربية، ضمن ترجماتها إلى لغات أخرى كثيرة.

رواياته تحاول انتقاد الأوضاع في بلاده ولكن تحت مظلة النظام، أي أنه لا يحلم لبلاده بنظام آخر ولكن أن يبقى النظام الاشتراكي بعد أن يتخلص من عيوبه وآلامه وأحزانه.

راسبوتين اقترب أيضا من جورباتشوف، لكن ليس بنفس قدر أيتماتوف وأصبح عضوا في مجلس الرئاسة، ولكنه في الفترة الأخيرة ترك موسكو وشقته الفاخرة واستراحته الجميلة وسافر إلى سيبريا، وقال إنه معتكف هناك حتى إشعار آخر.

أسأل، هل كان لهما معا، أيتماتوف وراسبوتين، موقف واحد، أي هل كانا في خندق واحد حول الرئيس؟ يقولون لي: لا.. بالنسبة للموقف من إسرائيل أيتماتوف ذهب إلى هناك. ولكن راسبوتين يرفض حتى مجرد التعامل مع إسرائيل حتى تقوم دولة فلسطينية، عن مسألة مصير الاتحاد السوفييتي أيتماتوف وهو من إحدى الجمهوريات الفقيرة في الجنوب

فهو مع بقاء صيغة الاتحاد التي كانت راهنة حتـى سـنوات حكم جورباتشوف الأولى، حتى لو فرض هذا الوضع بالقوة المسلحة ـ وأن الخروج من الاشتراكية أو الخروج عليها لا يعني الخروج من الاتحاد السوفييتي أو الخروج عليه.

في حين أن راسبوتين، وهـو ينتمـي جغرافيـا إلـى جمهورية روسيا الاتحادية، يرى أن روسيا الاتحادية لا بـد أن تنكفئ على نفسها في الداخل وتقوي من كيانهـا، وتقـف صلبة وعملاقة كدولة عظمى، وهي قادرة على ذلك بمفردها، ثم يتحد معا بعد ذلك من يشاء، كونفدرالية اقتصـادية أكثـر منها سياسية.

يبقى يفتشنكو فله ـ حتى الآن ورغم كل هذه المتغيرات ـ وجوده النجومي على الساحة السوفيتية، رأيته ليلة افتتـاح مهرجان موسكو السينمائي الدولي فوجدتني أمام نجـم بكـل معاني الكلمة.

ما إن نطقت اسمه حتى ظهرت حالة من التقزز علـى كل الوجوه، قالوا: شاعر كل العصور، لم يفته سوى ستالين لأنه كان طفلا في زمانه، وقف مع الجميـع فـي حيـاتهم،

ووقف ضدهم بعد رحيلهم من الكريملين سـواء بـالموت أو الإبعاد.

وقف مع خروشوف، وبعد إبعاده عن السـلطة سـمى عصره بالزمان النزق وكان يقول عـن نفسـه فـي زمـن بريجنيف أنه شاعر بريجنيف، ومنحه بعـد رحيلـه اسـم: الجمود، وهكذا.

ذهب إلى القاهرة في الستينيات وخطف أبصار الشباب وحلق بها بعيدا وهو يقول شعره عن السد العالي والصـداقة المصرية السوفيتية العظيمـة الموجهـة ضـد الإمبرياليـة والصهيونية، منذ عامين ذهب إلى إسرائيل وفي تل أبيـب، أهدى إلى رئيس الدولة المغتصبة للحق الفلسطيني بلطة لكي يحطم بها رأس كل من يهدد أمن إسرائيل.

وقبل الانقلاب الأخير بفترة أسس اتحاد كتاب مسـتقل عن الاتحاد الأصلي، أعلن أنه سيخصص للكتاب المنشـقين عن الاتحاد السوفييتي في الفترة الماضية والذين تم شـطبهم من عضوية اتحاد الكتاب السوفييتي في ذلك الوقت، مع أنـه سبق أن وصفهم بالخيانة العظمى من قبل.

آخر تقاليعه أنه تحول إلى الإخراج السينمائي، وأخـرج فعلا فيلما عنوانه " مراسم دفن ستالين " وهو يحكي تجربـة اليهود مع ستالين من خلال رؤية طفل لما يجري أمامه.

سألت: وهل يريد نوبل هو الآخر؟ إنها تمنح لشعراء في حالات شديدة الندرة، قالوا يفتشنكو حالة، إنه فقـط يسـعى للبقاء في دائرة الضوء مهما كان الثمن، لقد نسي يفتشنكو أن صدقه، كان كلمة السر الأولى والأخيرة، والآن مطلوب منه أن يكون صادقا. وبعد الصدق مع النفس ومع الغير يكتـب الشعر بعد ذلك.

عن نفسي عندما رأيته في المرتين اللتين رأيته فيهمـا كان يرتدي ملابس حمراء، حتى الحذاء أحمـر، واحتـرت لماذا اللون الأحمر بالذات، مع أنه يغرب من سماء البلـدان الآن، ربما كانت ملابسه قديمة ولفت نظري فـي المـرتين خاتم من الذهب أكبر من أي خاتم في يد أكبـر تـاجر فـي الاتحاد السوفييت الآن.

قلت في نهاية السهرة تعليقا على كل ما سمعته، المبدع موقف، ذلك هو الأساس، والباقي بعد ذلك تفصيلات لا تقدم ولا تؤخر، قلت أيضا: إن المثقف هو الإنسان الذي يتعـدى

تفكيره دائرة ذاته، إلى الاهتمام بالآخرين، ولا يتخذ موقفا ما من أجل نفسه، ولكن من أجل الآخرين ولا يضار من أجـل ذاته، ولكن من أجل الآخرين ذلك أبسط تعريف للمثقف.

المهم هل ندرك نحن المثقفين في الوطن العربي، هـذه الحكايات عن تلك العلاقة الشائكة والمعقـدة بـين المثقـف والأمير، وكيف تبدأ، وإلى أي مدى تنمو، وما هو الأفق الذي يمكن أن تمتد إليه؟

والأهم من كل هذا مدى تأثيرها على الكاتـب كإنسـان وموقف، وبالتالي مـدى التـأثير علـى إبداعاتـه الأدبيـة وتوجهاتها الأساسية وموقفها من الصراع الدائر.

آه لو كنا ندرك، وآه لو يأتي هذا الإدراك قبـل فـوات الأوان.؟!